AL-AZHAR UNIVERSITY
BULLETIN OF THE FACULTY
OF
LANGUAGES & TRANSLATION

جامعة الأزهر
مجلة كلية اللغات والترجمة

دور الترجمة في الكشف عن:
التحلل القيمي في الحياة الأوروبية المعاصرة

أ.د/ سيد أحمد فتح الله أبوزيد

قسم اللغة الألمانية، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر،
القاهرة، مصر.

سيد أحمد فتح الله أبو زيد
قسم اللغة الألمانية، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر.
البريد الإلكتروني:sayedfathalla@azhar.edu.eg

ملخص: نضرب هنا مثلين فكريين أحدهما مادي يرى الدين خرافة، والآخر ديني يرى الدين حلا أساسيا لكل مشاكل الإنسان، أحدهما المفكر والفيلسوف الألماني إرنست بلوخ، والثاني هو الكاتب الروائي الألماني من أصل نمساوي هيرمان بروخ، التقى كلاهما في الأصل اليهودي وفي التوجه نحو خفوت دور القيم في المجتمع الغربي. وإن كان أحدهما وهو الفيلسوف إرنست بلوخ يرى هبوط القيم ضرورة لاندحار الدين أمام شعلة الإلحاد في زعمه، فقد رأى الكاتب الروائي هيرمان بروخ ذلك ضرورة حياتية بعد الحرب العالمية الثانية، واندحار الإنسان أمام طموحاته الفردية: فقد بين بلوخ في فلسفته أن التطور الطبيعي للإنسان هو التوجه نحو التقدم حتى يعبد الإنسان ذاته، وهو هنا قريب من صاحب الفلسفة المادية البعيدة عن الروح فريدريش نيتشه، بينما رأى بروخ أن الطموح الفردي للإنسان يصل به إلى التموضع وراء قيمة واحدة تحقق غرضه الدنيء، وتدفعه لترك المنظومة المتكاملة لقانون الله في الوجود. حيث يضمحل الطموح الذاتي إلى قيمة فردية تتمثل في تحقق الذات على حساب الواقع.

الكلمات المفتاحية: الترجمة، الفلسفة، الأدب، القيم، الفكر، الأدب الألماني

Translation reveals decomposition of values in the contemporary European intellectual life.

Syed Ahmed Fathalla Abouzid
Department of German Language - Faculty of Languages and Translation/ Al-Azhar University, Cairo, Egypt
E-mail: sayedfathalla@azhar.edu.eg

ABSTRACT: By analogy with two German writers here we give two intellectual examples, one of which is a materialist who sees the religion as a superstition, and the other is a religious one who sees religion as a basic solution to all human problems. One of them is the German thinker and philosopher Ernst Bloch, and the second is the German novelist of Austrian origin Hermann Broch. Both of them met in their Jewish origin and in the trend towards the disappearance of the role of values in Western society. If one of them, the philosopher Ernst Bloch, saw the decline of values as a necessity for religion to defeat before the flame of atheism, according to his claim, the novelist Hermann Broch saw this as a life necessity after World War II, and for man to defeat his individual ambitions: Bloch demonstrated in his philosophy the natural development of man is the tendency towards progress so that man worships himself, and here he is close to the owner of the material philosophy far from the soul, Friedrich Nietzsche, while Broch saw that mans individual ambition leads him to position himself behind one value that achieves his vile purpose, and pushes him to abandon the integrated System of Gods law in existence.

Key Words: Translation, Decomposition of Values, European Intellectual Life, German Philosophy, German Literature.

من أهم أسباب معرفة التيارات المتضاربة أوالمتوافقة في الفكر الإنساني الإقبال على ترجمة ثمار هذا الفكر ورصد حركات تقلباته صعودا وهبوطا، واتجاهاته ذات اليمين أوذات اليسار، وإعادة رسم دوائره وتقليب مكوناته وإعلاء بعضها حينا وإهمالها حينا آخر وفق الرضا البشري بما ينفع الناس ويمكث في الأرض، أوبالميل الذي يحركه الهوى والتخبط ذات اليمين وذات الشمال، أو الإبقاء على حالة من التوازن حين تتساوى درجات التفاعل ولا تميل إلى الشطط.

لكن تأمل الوضع الإنساني من حيث الفكر والإبداع سلك في أوروبا نهاية القرن العشرين وبداية الحادي والعشرين مسلكا متشككا في كل ما هو سائد إبان حربين عالميتين والفترة التالية لهما، وكان للترجمة شأو عظيم في رصد ذلك ونقله وتحليله بصورة لا مزيد عليها في نقل الفكر ورصده والتفاعل معه. وشهد انحلال القيم في الغرب خاصة موجات متضاربة صارخة في هذا السبيل.

ونضرب هنا مثلين فكريين لإثبات تحلل القيم وتفككها في المجتمع الغربي وترجمة حصيلتها والتعامل معها: أحدهما مادي يرى الدين خرافة، والآخر ديني يرى الدين حلا أساسيا لكل مشاكل الإنسان، أحدهما المفكر والفيلسوف الألماني إرنست بلوخ، والثاني هو الكاتب الروائي النمساوي هيرمان بروخ، التقى كلاهما في الأصل اليهودي وفي التوجه نحو خفوت دور القيم في المجتمع الغربي في العصر الحديث. وإذا كان أحدهما وهو الفيلسوف إرنست بلوخ يرى هبوط القيم ضرورة لاندحار الدين أمام شعلة الإلحاد في زعمه، فقد رأى الكاتب الروائي هيرمان بروخ ذلك ضرورة حياتية زمنية ترتبت على عوامل بعد الحرب العالمية الثانية، واندحار الإنسان أمام طموحاته الفردية وانسحاقه أمام القيمة الواحدة، التي اختزلت حياته وفكره: فيرى بلوخ في فلسفته أن التطور الطبيعي للإنسان هو التوجه نحو التقدم حتى يعبد الإنسان ذاته، وهو هنا قريب من فريدريش نيتشه صاحب الفلسفة المادية البعيدة عن الروح، بينما رأى بروخ أن الطموح الفردي للإنسان يصل به إلى التموضع وراء قيمة واحدة تحقق غرضه الدنيء، وتدفعه لترك المنظومة المتكاملة لقانون الله في الوجود، حيث يضمحل الطموح

الذاتي إلى قيمة فردية تتمثل في تحقق الذات على حساب الواقع. فالأول (بلوخ) اختزل التاريخ والفكر في صورة التقدم، رغم أنه لم يبين طبيعته، والآخر (بروخ) صوره في اختزال الواقع نحو قيمة أحادية جنحت بالإنسان نحو التفرد والتميز في مجال أخلاقي – أو غير أخلاقي – بعينه يدل على تميز الشخص وتفرده.

وسنفرد لكل من العقلين الكبيرين بحثا يبين اندحار القيم الأخلاقية السامية في فلسفة كل واحد منهما بناء على أسباب ترجع لحياة كل واحد منهما وسيرورته الخلقية والمعرفية وخبراته الحياتية. وسنبدأ الحديث عن بلوخ بوصفه فيلسوفا مصورا قيمة الإنسان في المنظومة الكونية الساعية للتقدم حسب زعمه، وتخلي الإنسان عن جميع القيم الأخلاقية السائده، لأنها ليست ضاربة في جذور النفس في زعمه، وتسقط تباعا حتى يسود مجتمع العلو والتقدم الذي سيكون معيارا لقيمة الإنسان الرابض في التطور دائما إلى الأعلى، بينما يرى بروخ أن القيم الدينية كفيلة بإصلاح حال الإنسان، لولا تشرذمها، وربطها بلوخ بأنها منذ تفككت في زمن النهضة كمرحلة أولى سارت في ركاب التمزق حتى لم تعد رغم وعي الإنسان المعاصر بذاته ومستقبله وسبيل نجاته تسير في طريق التوحد تارة أخرى في سبيل اللجوء إلى الحياة المتحدة القيمة، سيرا على منهاج الخالق جل وعلا. بل وصلت في لحظة بائسة من حياتها إلى التخلي عن القيم أيضا كضرورة لفقدان القيمة الجامعة لكل، وهي التصور الصحيح عن الله وجعل كل شيء في حياة الناس نابضا باسم الإله الواحد الأحد. فقد الناس هذا التوحد باسم الإله ففقدوا وحدانية القيم وصارت كل قيمة تشرد بذاتها في دنيا لا تلتئم ولا تتحد في طريق مرضاة الواحد الأحد سبحانه وتعالى.

يتناول الجزء الأول فلسفة بلوخ، وكيفية وصوله إلى هذا المستوى المادي الجدلي المعاند، ويتناول الجزء الثاني أدب بروخ الروائي في وصوله إلى التحلل القيمي كما كتب في ثلاثيته الشهيرة "السائرون نياما"، إضافة إلى مقاطعها الفلسفية المنصبة على سقوط القيم وفقا لرؤيته

الفلسفية. وننظر فيما بعد فيما يفرق بينهما ويجمع على سبيل الأفكار البشرية الجامعة بين عقول الفلاسفة، ولو صدقوا الله "لكان خيرا لهم"، لكن كيد الإنسان لنفسه عتيد.

نتناول أولا التعريف بكتاب إرنست بلوخ "الإلحاد في المسيحية" الذي كنت عزمت على تقديم مقدمة لترجمته التي أعددتها قبل أكثر من عام، لكن ظروف نشره لم تسمح بوضع مقدمة للكتاب تقديما علميا يليق به والتعريف بمكوناته ومضمونه والهدف من كتابته كما يبدو من كلام المؤلف، وكذلك التعريف بالكاتب وتطورات حياته وكتاباته الشهيرة، ومنهج الترجمة التي نقل بها هذا الكتاب إلى العربية. وهناك قائمة بالمصطلحات والمفاهيم المؤثرة في فهم الكتاب. كما سأتعرض فيما بعد لثلاثية روائية للأديب النمساوي هرمان بروخ تحمل عنوان "السائريون نياما" للمقارنة بين رؤية الفيلسوف ورؤية الأديب/ الفيلسوف أيضا، في رصدهما للانهيار الأخلاقي في الغرب المسيحي، وسبر أسبابها كما رأى كل واحد منهمان وكيف التقيا في ضرورة حدوث ذلك، وقد تحول الغرب إلى مروَج للإلحاد دون مراجعة للنفس كما نرى اليوم.

كتاب إرنست بلوخ "الإلحاد في المسيحية" معالجة ماركسية للدين المسيحي وهو الاعتقاد الذي روجت له مؤسسات الكهنوت ودعت إليه، هي معالجة نقدية صارمة وصارخة، صاغها شخص على علم كامل بالدين اليهودي والمسيحي من حيث كونه شخصا يهودي الديانة قبل الإلحاد، وقارئا نهما لميراث الكتاب الذي ساهم في صياغة رؤية الغرب بقوة، ونعني به الكتاب المقدس عند القوم، وإرنست بلوخ شخص تبحر في الفلسفات والمذاهب والتوجهات الفكرية والعقدية للإنسان، وطوف في كل ما جاء من آثار عن الألوهية والكفران، وعن الزندقة والإيمان، وقطع عمره كاملا في التبحر في هذه العقائد وتفاصيلها، فصاحب الكتاب ليس رجلا سطحيا وليس شخصا عاطفيا، يجامل على حساب الحقيقة التي اكتشفها، والتي توصل بعقله ودراسته العميقة إليها، ودرس أدق التفاصيل المتعلقة بها وبأبعادها وإمكانات إثباتها، وفقا لما ظهرت به مكونات تلك الحقيقة لديه. فمحيطه الثقافي سجال هائل بين الدين ونقيضه، بين ميراث المسيحية بما يتضمن من جذورها في اليهودية من جهة – وبين المادية الجدلية والرؤية

الماركسية من جهة أخرى. ونظرا لثراء الكتاب وكثافة معلوماته فهو يتطلب من القارئ اجتهادا وتحديا، فلا يمكن لكل أحد أن يساير الكتاب في غزارته الفكرية وتنوع استدلالاته بين الكتب المقدسة وبين الأسطورة وبين الواقع الاجتماعي في تشابك لم أر مثله من قبل ومن ثم يحتاج إلى يقظة تامة خلال قراءته.

مع كل ذلك نقول إن هذا الكتاب صرخة في وجه الخرافة، وتنديد بمؤسساتها وسيرها نحو الانحراف الفكري والضلال العقدي وترويج الوهم بين الناس، صرخة ضد وهم تطاول قرونا وما يزال، ينشر التسطيح والإغراق في الغي وتغييب العقول، مارسته طويلا مؤسسات وأقطاب وكهنوت وقوى، كثير منها لا يثبت أي اقتناع بما يقول، أو في القليل لا يقدم دليلا مقنعا للعقل حوله، ولكنه من أجل المصالح يواصل سيره الحثيث في تكريس الوهم وترويج الزيف.

ومع ذلك نقول أيضا إن هذا الكتاب صرخة للخرافة، ودعوة لها من جانب آخر، فهو إذن صرخة ضد الخرافة وصرخة لها في آن معا، فنراه من جهة دعوة للعقل وتمجيده وتوظيفه، ومن جهة دعوة لنقيضه، إذ لا يرى كاتبه هدم الخرافة إلا ببناء خرافة جديدة، هدم بلوخ الدين الشائه الذي يروجه الكهنوت ويعتاش به ليأتي لنا بخرافة الإلحاد والتمسك بأهداب السراب، والعيش في منظومة ضياع المنطق والارتكان إلى الزعم بأن كل شيء جاء بغير مدبر ولا خالق ... كل شيء جاء بلا سبب، فلا خالق له ولا موجد، والأمر صدفة والحياة خبط عشواء، فالحياة صنعت نظامها من غير منظم، وضبطت علاقات مكوناتها من ذاتها بلا ضابط يمسك أركانها، وهكذا نعيش الأمل الذي روج له بلوخ، أملا في الواقع تبثه فينا الأرض بملكاتها فيما سيأتي به الغد، أملا لا ينتج إلابالثقة في جهد البشر وتقدمهم، دون أن نعرف من يضمن بقاءهم فضلا عن تقدمهم، أملا لا يصاغ إلا بالإنسان وحده والاعتماد على تقدمه الهائل وتطوره الرهيب ليصل إلى أفضل ما يمكن من خلال الإيمان بما لم يكن بعد "ما لم يقع بعد" (وهذا مفهوم أساسي عند إرنست بلوخ) وهذا المفهوم يقصد ما لم يقع من أمور كونية ومادية وإمكانات استشرافية قد يكون لها دليل وقد لا يكون.

وهذا العالم الماركسي إرنست بلوخ أكثر أنصار الماركسية انفتاحا على غيرها من المذاهب والرؤى والأديان، كما يبين هذا الكتاب، وكما بينت كتبه الأخرى، وبخاصة كتابه الهائل "مبدأ الأمل" الذي رسم فيه أمل البشرية في المستقبل القادم، وقد امتد انفتاحه لرؤى في الفلسفة الإسلامية عند ابن رشد والفارابي والكندي، ومن أطلق عليهم فلاسفة الإسلام، وربما لم تنفتح لهذه الرؤى الفلسفية التي وضعها فلاسفة الإسلام آفاق كثيرة عند اللاحقين بعدهم من فلاسفة الغرب، وكان تأثره هائلا بهيجل ورؤاه الجدلية، وبماركس وماديته الضاغطة، وفويرباخ وتطلعاته واتجاهاته الانقلابية على الدين وخرافاته كما جاء في صيغته المسيحية، ولكنه طوف أيضا في كل مجال معرفي أتيح له، وقدم رؤية هي الأكثر شمولا بين أقرانه ومن جاء بعدهم، لكنها اتسمت رغم كثير من الإرغاء والإزباد بغموضه الشديد – الذي نجم من اتباعه أنساق المبدعين الأدباء واستعاراتهم وكناياتهم بدلا من أن ينفذ إلى أقوال أفكاره الصريحة دون مواربة، كما يفعل معظم الفلاسفة – فجاء كثير من أفكاره مشوشا، وأسلوبه ملتويا وطريقته غامضة في عرض ما يؤمن به وربط مئات الأشياء ببعضها في نسق لا يعلمه على وجهه الحقيقي إلا الكاتب ذاته، ويمكن أن نبالغ ونقول على منهج طه حسين: حتى هو لا يفهم ما يكتب بصورة يقينية كما أبرزته فلسفته المشوشة، وفي كثير من الأحيان يقول الشيء ونقيضه، ويصدع بالحق ثم يميل للباطل، في صورة فريدة لم نر مثيلا لها بين الفلاسفة.

وإرنست بلوخ إمام من أئمة المادية الجدلية ولكنه لا يبين بأسلوب رصين واضح ما الذي يغري فيها، بعيدا عن الأساطير والأوهام، بل إنه يخلط كثيرا من رؤاه المادية بما ينتقده من أساطير خرافية، ولكن أكثر ما يظهر من كتابه هذا هو الحط الخطير من قدر المسيحية، وبيان انحرافات الكهنوت في الرؤية والمعتقد، وضلالات القوم فيما قالوه وصاغوه عن الرب الإله، وزيفوا عنه وعن العلم به ما زيفوا من ترهات جعلت الدين بما اقترفت أيديهم قرينا للخرافة والوهم، وهذا لا يقنع كبيرا ولا يشفي صغيرا في تساؤلاته المشروعة من قديم الأزل، وتلك هي

فكرته الرئيسية هنا: تحميل المسيحية المسؤولية عن بزوغ الإلحاد بعد ظهورها بهذا النسق المترهل والذي لا يخاطب الفهم أو يخاطب حدا أدنى من العقل فضلا عن أن يشفي القلب، وهي فكرة كان تعرض لها جزئيا في أعظم كتبه "مبدأ الأمل"، ثم تناولها هنا بكثير من التفصيل والبيان. وهو بيان لم نر مثيلا له من حيث سوق الفكرة والتدليل عليها، وتكرارها بإلحاح في صور متعددة من قرائن الاستدلال وفروض الاحتمالات المختلفة ليخلص إلى النتيجة الهائلة، وإن شاب استدلالاته كثير من التشويش لتعقيد شخصيته وتداخل ألف عنصر وعنصر في تكوينها، وفي صياغة الفكرة بنسق فريد وقول يرشد كثيرا وكثيرا ما يكون غير رشيد.

تلك هي الحياة التي يمر بها كثير من كبار المفكرين اليوم ومنهم هذا المفكر والفيلسوف الماركسي الألماني، إرنست بلوخ، الذي يعد نموذجا كبيرا لهؤلاء، إنه نموذج للشخصية الحائرة والفكر الحائر وقبل كل ذلك يعد نموذجا للغة الحائرة المحيرة، فهو رغم كونه من أكبر من مثل الرؤية الفلسفية الماركسية وتبناها بين الألمان وروج لها، إلا أن لغته كانت ذات تفرد خاص، ولم تجر في النسق المتعارف عليه للماركسيين في نقد المذاهب الأخرى، خاصة الرؤى الدينية منها، بالصراحة والوضوح الكافيين، اللذين يصلان أحيانا إلى حد الفجاجة. فراح يراوغ حول الأفكار بلغة شعرية لا تنفذ مباشرة للهدف، واستعمل الرموز والصور بإفراط بالغ في طرح الرؤى وبيان الفكَر. لكن هذا لا ينفي كما قلنا أن الفكرة تتضح من خلال نماذج كثيرة وبينات متكررة عن انتقاد موجع لمكونات المسيحية التي قال بها الكهنوت المتعارف عليه في الكنائس المعتمدة، أيا كانت مذاهبه، وإسهامها في رأيه في وصول الناس للإلحاد وقناعتهم به، إذ لم يطرح أمامهم من خلالها بديل إيماني مقنع، بل إن ما قدم إليهم من هذا البديل دفع إلى الكفر والإلحاد، كما هو واقع الغرب اليوم بل وواقع الكثيرين في الشرق والغرب في يوم الناس هذا إلا من رحم الله.

يعرض الكتاب تجربة مليئة بالكشف عن فضائح فكرية وعقدية هائلة تمكن بلوخ من تعريتها وحبسها في سجن هي التي أرادته بذاتها، سجن الخرافة، تلك التي دأب كثيرون من سدنتها منذ القدم على سوقها للكافة على أنها حقائق ناصعة، وما هي إلا وهم شنيع، غيب الإنسان عن ذاته وعن كونه ودفع به إلى حضيض الفكر وسقيم الاعتقاد. إنها تجربة ثرية بحق، فيها من الغموض ما فيها، وفيها من الجرأة أيضا ما فيها، وفيها من الترميز ما يند عن الوصف والشرح، وربما يكون هذا الكتاب أشد الكتب التي يواجهها القارئ رمزية رغم أنه يتحدث عن رؤية فلسفية نقدية، توصف حسب تصنيف دار النشر التي نشرت الكتاب، بأنه يندرج ضمن "سلسلة علمية"، نظم هذا الكتاب حبة بين فرائدها من أجل نشر العلم، بمعنى أنه كان ينبغي في هذا السياق أن يستخدم الكاتب اللغة العلمية البعيدة عن الرموز والإيحاءات، فيشرع في استخدام العبارة الناصعة والناصحة التي تصدع بالتصريح والإيضاح، ولا تربض خلف الإشارات والإيماءات، لكن بلوخ فضل على غير منهج الفلاسفة أن يستخدم لغة الكنايات والإيحاءات غالبا، كما استخدم مئات من المصطلحات والعبارات اللاتينية التي يعتبرها هو مفهومة لديه، ولكنها تشقي المتلقي وتشقي المترجم بصفة خاصة أيما شقاء في البحث داخل مصادر لا تنتهي، ومحاولات لا تنقضي للوصول إلى الحد المعقول من لغة يتخاطب بها العاقلون فضلا عن المثقفين. وحسبنا أنا سعينا لذلك حتى لو قال القارئ فيما بعد ومعه عذره صارخا فينا: هيهات! ونحن نقول له أننا بذلنا ما نستطيع للوصول إلى المعنى بالوضوح الممكن، وحسبنا أن قراءة الكاتب في لغته الأصلية أيضا تبقى صرحا ممردا من قوارير تعكس الرؤى المختلفة بألف زاوية بلورية التكوين كما في لغة الأدب في عصر الباروك / القرن السابع عشر، وتربط آلاف المنمنمات معا في خضم هائل من الإيحاءات التي لا نعلم أيها المقصود عند المفكر بلوخ إلا فيما ندر. وكان المرجح لنا هو كثرة تكرار الفكرة ذاتها في نماذج عديدة، لو أخذ كل واحد منها على حدة لم يفهم منه شيء إلا ظاهر الانتقاد، لكن الحقيقة تتأكد بكثرة التكرار.

وعلى هذا فالكتاب على أهميته، يزخر بالإحالات إلى مصادر كثيرة وأعمال متعددة، بين القديم والحديث، منها ما يؤخذ مأخذ المعقول والأشد عقلا، ومنها ما يندرج تحت الأساطير والخرافات والأشد خرافة، والعجيب أنه يسوقها جميعا بلا تفرقة بين الخيال والواقع، ولا بين المعقول والمأمول، كيف لا وهو صاحب كتاب زاد عن ألف وستمائة صفحة، أسماه "مبدأ الأمل" وصار نارا على علم في تأجيج الأمل الماركسي وصناعة البشارة على طريقة لا تخلو كثيرا من الأوهام التي راجت بين الذين ينتقدهم بلوخ نفسه، صاحب الكتاب. فمن يقرأ بلوخ لابد لكي يفهم مغازي أقواله أن يكون ملما بتراث السابقين واللاحقين حتى عصره، ويتأهب للغة فيها من الإبهار ما فيها، وفيها من تناول الأمور الجوهرية ما فيها، لكنها تحتاج إلى إلمام هائل بفلسفات ورؤى يوردها الكاتب كأنها بدهيات، لكنها تجبر القارئ على أن يستحضر – إن شاء الفهم الدقيق – عصارة جهود الفلاسفة السابقين عليه، من وافق بلوخ ومن خالفه على حد سواء، فالعمل زاخر بهذه الرؤى ولن يستطيع القارئ المتوسط في هذا السبيل خوض التحدي بمجاراة بلوخ في أسلوبه وطريقته وإحالاته التي تحتاج إلى شروح يضن هو بها، ولو في حدها الأدنى، لتيسير الفهم وتيسير الوصول إلى مقصد الكاتب نفسه لقرائه المنهكين خلفه. وقد حاولنا قدر الطاقة أن نمد القارئ بزاد مرجعي لكثير من هذه الإحالات، لكننا لا نستطيع أن نوفيها كلها حقها، ومع ذلك فسيجد القارئ أننا كتبنا الكثير من الهوامش من أجل نفعه وتزويده بما يعينه على فهم العمل، وربما لا تخلو صفحة في ترجمتنا للكتاب من الأصل الألماني من هوامش موسعة أحيانا ومضيقة أحيانا أخرى حسب ما نرى، يحدونا في ذلك هدف واحد: توصيل المعنى للقارئ بأوضح صورة ممكنة، وأركز على الوصف الأخير، لأن الإيضاح بصورة تامة ليس ممكنا بالمرة مع بلوخ وأخلاطه بين المعقول وغير المعقول وبين الحقيقة والخرافة. لكن دار النشر ضنت هي الأخرى على القارئ بهذه التعليقات والهوامش لأسبابه الخاصة والتي أرى أن الصواب جانبها في ذلك أية مجانبة.

الكتاب إذن تجربة ثرية في تعرية الرؤية الأوروبية بشأن الفكر اليهودي المسيحي الرابض في الكتاب المقدس ومؤسساته الضخمة ومن لف لفها وحدب على مأسستها في جميع محافل الفكر الأوروبي حتى وإن كان علمانيا، لا دينيا، مصطبغا في الشكل العام بصبغة العلم، فإذا بحثت وجدت الحقيقة المرة التي يتبناها سدنة من نوع غريب فكرا وإيحاء وطعنا وإقصاء لكل من يخالف المنهج المعتمد، لكن جرأة بلوخ عرت هذا على كل حال وإن كان منهجه متوجسا أحيانا، وشاردا أحيانا أخرى، ولكن الحصيلة النهائية أن بلوخ صدع بقوة في وجه هذا الباطل الذي صورته المحافل والملتقيات والمعاهد والأبرشيات، حتى ترسخت الخرافة في الأذهان عميقة الأثر كبيرة الضرر، إذ هي كما أوضح بلوخ هنا مؤسسة لنشر الوهم بإله مصطنع، وإيمان مصطنع أنتجته الأوهام والرموز الوثنية وعباد الأصنام، على مراحل تطاولت، فغاص بلوخ في الكتاب المقدس غوص المنقب عن الخبايا والعليم بالخفايا فيما يقرأ ويفتش خلف كل مغزى وهو يقلب، فبلوخ يظهر هنا علما هائلا بمكونات الكتاب المقدس والمخازي التي دست فيه على مراحل لا تنتمي لعصر المسيح ولا هي من جنس ما قال الكهنة عنه على امتداد الزمان والمكان وزعمهم أنه وحي، بل إن فيها توارد لأقوال كثيرة عن آلهة عرفتها القبائل والشعوب البدائية في سعيها المضطرب نحو الركون إلى تفسير للحقائق التي يرون أثرها دون أن يدركوا مصدرها، مطر ورعد وبرق وعواصف، وزلازل وبراكين، وزرع ونماء وإشراق وجمال وبهاء، وظلمة وشقاء... وبين هذا وذاك تخبط كثير من اليونان والكنعان والمصريين وعباد بعل في آشور وفي بابل وفلسطين وفي بقاع كثيرة، لكنهم لجأوا إلى تفسير ذلك وفق تجاربهم، فكيف ساغ لهؤلاء أن يضفوا على الإله الذي خلق – رداء صنعه الوثنيون وأهل الشتات العقلي والخرافات البدائية؟ وكيف نفهم الأساطير التي أحاطت بشدة بالكتاب المقدس وما جاء فيه؟ هذا تخبط أصاب بلوخ وأفقد نقده الجدة المطلوبة.

يسلط بلوخ عين الخبير بذلك على حقائق أنتجت الخرافة وغذتها بالأضاليل، ونتج خليط هائل مما يمكن أن يصدق بعضه وكثير منه لا يمكن تصديقه، فحار البشر وتماوجت رؤاهم ولعبت

خيالاتهم حيث لا ينبغي أن يكون للخيال دخل ولا للطوبيا محل، وزاغ البصر وكَلّ الفهم لطبيعة الإله العظيم ومنهاجه الذي كان ينبغي أن يهدي البشر بوضوح وجلاء إليه.

وهذا الكتاب الملغز يعتبر مع ذلك شهادة عصر على حالة بائسة من الاضطراب العقلي والحضاري والفكري في محيط روحي ممتد الأرجاء والنواحي الجغرافية والزمنية في وقت معا، فقد بين الكتاب بما لا يدع مجالا للشك أن "الحواضر الروحية تفككت"، كما قال مولتمان في تعليق له على هذا الكتاب[١].

من حيث التفصيل يقع الكتاب في ٣٦٢ صفحة باللغة الألمانية، وظهرت أول طبعة له في دار "سوركامب" بمدينة فرانكفورت الواقعة على نهر الماين، عام ١٩٨٥، ثم تتابعت الطبعات حتى وصلت إلى الطبعة الرابعة عام ٢٠١٥ ، والكتاب يمثل المجلد الرابع عشر من الأعمال الكاملة لبلوخ التي تولت نشرها الدار نفسها، وتصل أعداد مجلدات الطبعة الكاملة إلى ستة عشر مجلدا بالإضافة إلى مجلد متمم دون أن يحمل رقم المجلد السابع عشر. وسنتوقف فيما يلي عند محطات مختارة من الكتاب ولن نتناول كل ما فيه إذ يصعب ذلك، لكن المقصود هنا هو إعطاء مفاتيح للقارئ حتى لا تستغلق عليه المفاهيم بعد أن استغلقت كثير من مفاتيح لغة بلوخ التي زعم أنها "المية، وفلسفية".

يقع الكتاب في سبعة أبواب مقسمة على ٥٣ فصلا وتقسيماته أحيانا تكون منطقية وأحيانا غير منطقية أو غير مفهومة للأسباب التي بيناها سلفا. ويبدأ الكتاب بمفتتح أدبي تمهيدي فيه من اللغة الإشارية الكثير وترتبط فيه عناصر قد تبدو بلا رابط. فيقول هنا إن أفضل ما في الدين هو استدعاؤه لوجود المهرطقين، ويبين أن الدين هو سعي لاستعادة الارتباط – كما يوحي بذلك لفظه في معظم اللغات الأوربية Re-ligio – مع الرب الأسطوري الذي بدأ الخلق

[١] أنظر مولتمان ، يورجن: "والكتاب المقدس له أيضا اتجاه يساري" في مجلة دير شبيجل العدد ٤٠ /١٩٦٨ الصادر في ١٩٦٨/٩/٣٠. ص ١٧٢ من النسخة الورقية. نسخة إلكترونية للمقال.
Moltmann, Jürgen: Über Ernst Bloch: Atheismus im Christentum. Und die Bibel ist doch links. In: Der Spiegel. 40/1968. S. 172 ff. Elektronische Version. *www.spiegel.de* .

ومن ثم فإن ادعاء هذا الرب لا يصح دينا، وهنا يقرر بلوخ: "وحده المسيحي يمكن أن يكون خير إلحادي، ووحده الإلحادي يمكن أن يكون أفضل مسيحي" في لغة صادمة ومباغتة في صراحتها.

وفي مقدمة الكتاب يتناول بلوخ قضية فقدان الدين رونقه وفقدان طبقة رجال الدين/ الإكليروس لمقامها انطلاقا من قناعات العصر الحديث، خاصة بعد التجربة الأوروبية مع الدين وانحرافات وكلائه من رجال الكهنوت، مما جعل الإيمان "عسيرا"، خاصة بعد ظهور الضربة الماركسية القاصمة له، وفق قول بلوخ. ثم يناقش تصوير الكتاب المقدس للمؤمنين كأذلاء أمام الطواغيت، وثورتهم على من أسماهم "العلية/ أهل العلا، الساكنين في العلا". ثم يبين القسوة التي أظهرها الكتاب المقدس وفقا لرؤيته في سفر عاموس ونذارات الرب وتهديداته، ويربط ذلك بالقسيس توماس مونتسر، لاهوتي الثورة زمن لوثر، ويعد مونتسر أحد الإصلاحيين المسيحيين الأوائل في ألمانيا، وظهر خلال القرن السادس عشر الميلادي متزعما الفلاحين المتمردين إبان حربهم على النبلاء ورجال الحكم في ثورة ١٥٢٤ في ألمانيا.

وبعد هذا المفتتح يتكلم الفصل الأول من الباب الأول الذي يحمل عنوان "حول الزاوية" إشارات إلى الكهنوت الداعي إلى الدوران حول الذات عند من يمشي داخل نفسه، ويبدأ بلوخ فصوله دائما بملمح بلاغي يشير إلى مضمونه لكنه على درجة عالية من الرصانة الأدبية واللغة المؤثرة سيرا على منهج الأدباء التعبيريين الذين تأثر بلوخ في كتاباته جميعا بهم، ورغم إعجابك الشديد بمستوى البلاغية في القول لكنه لا يستقيم مع فهم الأمور الفلسفية التي تحتاج إلى وضوح وجلاء و"علمية"، فالقارئ للفلسفة سيرى هنا نمطا مختلفا عما اعتاده من كتابات ومؤلفات، سيعتاد هنا ربط الأدب حتى النخاع بالمكون الفكري الفلسفي في توليفة مذهلة ومؤرقة في الوقت ذاته. وفي مقطع آخر يتكلم بلوخ عن لغة العبيد الخانعة أمام السادة من أهل العلية لينالوا الرضا والبركة منهم، ثم يتعرض لشارب هندنبورج الشهير، شارب القائد العسكري والسياسي الألماني الذي تولى أيضا رئاسة الدولة الألمانية بين عامي ١٩٢٥ و١٩٣٤ وخاض

حروبا مع النمسا وفرنسا، وربما تسبب هندنبورج بتعيينه أدولف هتلر مستشارا للرايخ الألماني في أكبر كارثة مر بها تاريخ ألمانيا بعد بزوغ النازية على سماء ألمانيا وأوروبا ، وأرقت من ثم العالم كله، لكن شارب هندنبورج اتخذ هنا رمزا للعظمة المصطنعة، التي لا تقوم على حقيقة، وهو بدوره يمثل دور العلية عند بلوخ ويمثل عظمة السادة التي لا تقوم على أساس.

ويتناول الباب الثاني من الكتاب والذي يحمل عنوان "الغضب والحماقة" في بدايته دعوة لنبذ الخنوع والجبن عند البعض ويدعو بأسلوب أدبي أخاذ للانتقال من الزفرة إلى الزمجرة في وجه السادة وإلى تخليص المسحورين من سحرهم، من خلال محاولات التنوير، لكنه ما يلبث أن يقرر أن التنوير ناقص وما تزال محاولاته مفزعة النتائج بعد الانتكاسة التي رآها العالم في سياسة "الدم والأرض" النازية، ويعرض صورا من المسحورين بالخرافة المسيحية في مقابل المسلحين بالعلم ووسائل الصعود إلى الفضاء، ويتناول بعد ذلك قسطا من غرائب الكتاب المقدس ولغته الغريبة ويربط بينه وبين مناهج الأدباء في تنقيح أعمالهم بعد كتابتها، ويعيب على الكهنوت ابتعاد لغته عن روح الشعوب بفعل الكتاب المقدس وما يحويه من غرائب تزخر بخيالات أسطورية مفزعة. ثم ينتقل بلوخ إلى ما حدث من توافق شديد بين قادة الكنيسة الكاثوليكية خاصة وبين السياسة النازية القمعية المتسلطة بما غرست من شناعات تمثلت أكثر ما تمثلت في اضطهاد اليهود وتصفيتهم، كما عاب على الفاتيكان مباركتها للقتل والخراب بعد مواقف مشرفة سبقت للبابا بنديكت الخامس عشر، ويصف الكنيسة الكاثوليكية في زمنه بالخيانة والتعاون مع المستبدين والطغاة.

في الباب الثالث بعنوان "حتى بروميثيوس كان أسطورة" يتعرض بلوخ لأسطورة بروميثيوس حامل شعلة النار ومُوقدها وعلاقة ذلك بمبادئ متعارضة في الكتاب المقدس، مبرزا دور كارل بارت – عالم اللاهوت السويسري المعارض بشدة للنازية والمعارض أيضا للفكر البروتستانتي – في بيان ذلك، كما تعرض لأطروحات شلايرماخر ورفضه محاولات التوليف بين الرب والإنسان. ثم تحدث عن مآخذ مارتن لوثر على سفر رؤيا يوحنا في العهد الجديد ووصفه هذا

السفر بأنه "كيس ألاعيب"، ثم يتطرق في هذا الباب أيضا إلى رؤى بولتمان ورودلف أوتو وكارل بارت عن نزعة الهروب والتخلص من النهج الأسطوري، وارتباط الكتاب المقدس خاصة في سفر الملوك الثاني بالأساطير الموغلة في الخيال، ويجاوز ذلك إلى ما ذكره شيلر عن أساطير الإغريق القدماء وآلهتهم. ثم ركز بلوخ في مبحث خاص على تصورات كارل بارت فيما كتبه عن "خطاب رومية" مبينا الفارق الهائل بين الإنساني والعلوي أو بين الزمن والخلود، ومبدأ بارت الصارم: "الرب يعلن رفضه الأبدي لهذا العالم" كما يعرض لنا كيف تكلم بارت عن المجهول بصورة قطعية، ويتناول رؤية ألبرت شفايتسر الذي اشتهر بنقده لتخلي الحضارة الغربية عن الأسس الأخلاقية، ودعا (أي شفايتسر) إلى احترام كل مظهر من مظاهر الحياة الشخصية والروحية، وناهض الاتجاه نحو تطوير الأسلحة النووية، وكتب شفايتسر كتابا أسماه "البحث عن يسوع التاريخي" عام ١٩٣٠.

ثم يتعرض الكتاب لعلاقة الماركسية بالدين ويتناول المقولة الماركسية الشهيرة "الدين أفيون الشعوب" وإسهامات فويرباخ في نقد المسيحية، خاصة في كتابه "جوهر المسيحية" الذي أثر في كل الإلحاديين من بعده كماركس وإنجلز ونيتشه، وتأثير هذا الاتجاه النقدي في الأوساط الغربية. ثم يتحدث بلوخ عن التصوف كحركة علمانية خاصة عند أفلوطين والأفلاطونية الجديدة، والأفلاطونية الجديدة هي أصل جميع أشكال التصوف المسيحي تقريبا، ثم يتطرق إلى ماركس وانقضاضه بكتبه على الميتافيزيقا وبداية الطوباوية المجسدة التي تبشر بها الماركسية، ويصف الماركسية بأنها قفزة من مملكة الضرورة (الميتافيزيقية) إلى مملكة الحرية، ثم يتناول رؤية فلسفة هايدجر لتجاوز الميتافيزيقا من داخل الميتافيزيقا ذاتها. ويختتم هذه الرؤية بالقول بأن من الممكن قراءة الكتاب المقدس بعيون البيان الشيوعي لإلغاء كل ما هو علوي/ إلهي ... إلخ. ثم يتطرق بعد ذلك لنقد الكتاب المقدس عبر النظر في مكوناته ومراجعاتها المتكررة والتعديلات والتنقيحات التي أضيفت مرارا كما كشف بعض المواضع الفاسدة التي تعدلت وزيدت بصدفة بحتة ويشبه ذلك بما قامت به إليزابيث فورستر نيتشه مع

كتب أخيها الفيلسوف فريدريش نيتشه وتشويه كثير من محتواها عبر تحريرها لها. ويسوق ما حدث مع لفائف قمران وما أضفته على نصوص عزرا ونحميا، وما أضافه الفكر التوراتي لأسفار مثل "كوهيليت" (سفر الجامعة) وسفر أيوب وغيرهما. ويبين بعد ذلك ما أضفاه فكر باروخ سبينوزا المتحرر على نقد الكتاب المقدس.

في الباب الرابع الذي يحمل عنوان "سفر الخروج في تصور يهوه ونزع السلطة الثيوقراطية" يتناول بلوخ سفر التكوين وتداخلاته الكثيرة، خاصة عنصر الحية في السفر ودورها المزعوم في خروج آدم وحواء من الجنة على حد ما جاء في السفر ذاته، وغواية الشيطان لهما بالأكل من الشجرة المحرمة، ثم يتناول الإصحاح الثاني عشر من السفر وما وقع به من اختراقات في الصورة الدينية عن يهوه الذي رضي بقربان هابيل لأنه قربان من الذبائح ولم يرض بقربان قابيل لأنه من ثمار الحقل، ويستخلص من ذلك أن هذا الرب رب دموي، ثم يتطرق إلى كيفية تحول هذا الرب الدموي في سفري عاموس وإشعياء إلى "رب إسرائيل المقدس" (زيباوت)، ثم انطلاقة يهوه إلى النبوءة الأخلاقية العالمية مع أهل الناصرة كما في سفر الملوك الثاني.

ثم يعقد بلوخ مقارنة بين كاساندرا ابنة بريام ملك طروادة وهيكوبا في الأساطير الإغريقية وبين آلهة إسرائيل وكانت كاساندرا محبوبة لأبولو ووعدها بنعمة البصيرة والقدرة على التنبؤ إن استجابت لرغباته فوافقت على طلبه، ولكنها بعد أن حازت الموهبة تنكرت له وسخرت منه، فانتقم منها أبولو بأن جعل كل تنبؤاتها كاذبة، فيقارن بينها وبين آلهة إسرائيل في نسيج أسطوري ديني غريب. ثم يورد هنا ضمن هذا الخليط بما فيه من الحيرة العارمة مقولة إيفان كارامازوف بطل رواية الإخوة كارامازوف للكاتب الروسي الكبير دوستويفسكي: "أؤمن بالرب ولكنني أرفض عالمه".

يعقب ذلك فصل أخير في هذا الباب يتناول فيه بلوخ وصفا دراميا لقصة أيوب بعد أن صار متمردا خارجا عن توقعات الرب يهوه، فراح يتنقص من حقوق الرب بعد أن عانى أيوب من

شقائه وقروحه التي هاجمته ووحشته بين الناس حين يقول: "فاعلموا أن الله قد عوجني ولف علي أحبولته، ها إني أصرخ ظلما فلا أستجاب، أدعو وليس حكم"، كما ورد في الكتاب المقدس عنه، ويصف أيوب بعد ذلك بأنه بروميثيوس العبراني، في إشارة إلى شخصية ميثولوجية أسطورية معروفة بأنها أول من عرف الإنسان استخدام النار ودله على ما يدبر به أمره وطعامه.

في الباب الخامس بعنوان "إما قيصر وإما المسيح" يتناول بلوخ عملية اختمار الثورة في البشر، ثم يتناول مفهوم البشارة كمعارض للخوف من الرب، وهذه كما يقول هي مهمة يسوع في فهم المؤمنين عن الرب يهوه، بحيث أصبح يسوع هو الماشيح بالمعنى المتوارث، أي المخلص المنتظر، ويتناول بعد ذلك موعظة الجبل "أحسنوا إلى من يبغضكم ..." معلقا باستنكار بعد ذلك عن واقع الناس من خلال تساؤل يسوقه: "فهل وضع في الحسبان هنا العمل بهذه الوصايا داخل العالم المشهود؟ إن هذه النصائح تجعل من يتبعها مذنبا، حين تدعو إلى تحمل الظلم." ثم يتعرض للقب ابن الإنسان ويقارنه بلقب السيد المسيح أو الرب المسيح، ودلالة كل منهما معقبا بمركزية المسيح المطلقة في الرؤية المسيحية والتي تعد "مفتاح الإنجيل" وفق ما جاء في إنجيل يوحنا ١٧، ويربط بين بشارة الباراقليط وروح الحق عند زرادشت "فوهو مانو" التي تعني عند زرادشت أيضا رمز العدالة.

ويعالج بلوخ هنا أيضا ما يسمى بصبر الصليب في تعاليم بولس، واستدعاء القيامة ووضع الآثام الهائلة على كاهل يسوع ليحمل ذنوب البشر عنهم ، ثم يتناول الكاتب معراج السماء وعودة يسوع بعد موت الفداء ووكالة يسوع عن الناس في منظومة مرهقة التصور.

وفي بيان تاريخي يتناول الكاتب طائفة العابدين للأفعى – وهي طائفة ظهرت في القرن الثالث وأحاط بها غموض كبير – وعلاقتهم بالمسيحيين في زمانهم وبعد ذلك.

في الباب السادس الذي يحمل عنوان "إما الكلمة (العقل) وإما الكون" يتعرض بلوخ أولا لأسطورة من أساطير اليونان القدماء هي أسطورة أورفيوس المغني اليوناني الشهير وقصته مع جنيات البحر، ويصور أورفيوس كمغن للحق يجبر الناس على سماعه ويلفت الناس لمعرفته. ولكن هذا كان يتم في الأساطير من خلال تغير العالم الخارجي بصورة فردية؛ وقد نجح أورفيوس المترنم وفقا للأسطورة "في أن يجذب إلى طربه الوحوش الضارية بل وحتى الأشجار والأنهار التي جاءت جميعا لتنعم بشدوه الذي يصدح به. لقد تمكن أورفيوس بقوة الطرب الذي كان ما يزال حتى ذلك الوقت طربا هادئا ملطفا للمشاعر برغم قدرته على التذويب – تمكن من الولوج إلى العالم السفلي الكامن مؤثرا في آلهة الانتقام ذاتها، معطلا دراجة إكسيون النارية كما ساعد أيريديكه زوجته حتى أوشكت على الخروج إلى النور مرة أخرى. لقد كان سحرا أبيض في مواجهة السحر الأسود المعادي للبشر الذي ظهر على يد الجنيات، وقد تمكن غناء أورفيوس من إسكاتهن بعد أن واجههن معارضا، دافعا إياهن إلى الارتماء في مياه البحر. لقد انتهى أثر إغوائهن المسكر الذي لم يكن يُخفي إلا المخالب والتمزيق والدم بعد أن حقق غناء أورفيوس عليهن فوزا كانتصارات أبوللو، وكانت نهاية استدعينها هن لأنفسهن على غير رغبة منهن. وصحيح أن أورفيوس لم يتمكن من دحر سرب من النساء الثملات اللاتي قابلنه خلال شكواه من فقده يوريديكا زوجته، كما تمكن من دحر الجنيات من قبل. بل إن هؤلاء الثملات مزقنه كما مزق ديونيس من قبل، فصار الآن مماثلا له بلا غناء بشري مقتحم، وإنما كإله احتفالي ماجن محب للحياة، فلم يعد مع هذا التداخل ملطفا للمشاعر مهدهدا للخواطر، وإنما بصفته الآن منتميا إلى مسار الطبيعة الثملة، حتى وإن كان أورفيوس كما تقول بقية الأسطورة قد توحد بعد ذلك مرة أخرى مع يوريديكا في عالم الموتى السفلي، وسكونه المفعم بالدموع، ذلك المكان البعيد عن تصورات ديونيس. وهنا كانت شكوى أورفيوس لفقد يوريديكا وهي شكوى تنم عن الوفاء – هي ما أثار مرارة النساء الثملات وجعلتهن يمزقن هذا

المغني الذي لم يكن يدعو لتعاليم احتفالية ماجنة. ويبدو هذا في الوقت نفسه كأنه نهج جديد للجنيات وكأنه جو لإله متجسد يغني كأنه ما يزال في بطن العالم القديم."

هذا الجزء الذي لخصته من النص الأصلي يبين للقارئ كيف يغرق بلوخ في القصص الأسطوري ليعارض به النظرة الدينية للكتاب المقدس ويبين درجة التماثل بينهما، رغم البعد الهائل بين مقصد هذا ومقصد ذاك، إلا أنهما مشتركان في البعد الأسطوري عنده عن واقع الناس، ويدخل بعد ذلك في عرض فلسفة الرواقيين الداعين للملكوت داخل العش والقناعة بما أتيح في الطبيعة وما أطلقوا عليه "مدينة زيوس" ذات البهاء والعلو.

يتناول بلوخ بعد ذلك نظرية الفيض الغنوصية ويربط ذلك تارة بحلم يعقوب في سفر التكوين وتارة بنظرية أفلوطين عن انطلاق الأفكار من الإله الواحد إلى هذا العالم. ثم يربط أيضا بين أسطورة الكواكب والأثر البابلي المصري في الحياة الأرضية وبين السماء المرصعة بالنجوم في الكتاب المقدس ويزعم أن بابل ظاهرة في الآباء الأوائل لإسرائيل، وكذا في قصة يوسف بل وحتى قصة موسى، ثم يربط يسوع بصور من آلهة النبات كما قال آرثر ديفز عن أسطورة المسيح. ويعقب ذلك حديث عن الأركاديا والطوبيا، ثم يتحدث ثانية عن الشمس والقمر ممثلين لثنائية الرجل والمرأة لربط كل ما هو مسيحي بأساطير تراثية سابقة للإغريق والفراعنة وبابل وآشور في حشد بديع ولكنه خرافي أيضا في تهويماته وخيالاته، كخرافية ما يسعى بلوخ لانتقاده.

ويتحدث بلوخ بعد ذلك عن الزهد المسيحي على خلفية الإنسان والروح عند فويرباخ وكيف صار الرب بشرا، وتلاقي صور من نقد العلوم الإنسانية مع النقد الصوفي وأشعار أنجيلوس سيليزيوس الصوفية. ثم يعرج على أسطورة تجسيد الكلمة في هيئة مملكة بلا طبيعة وتناول قطفا من فلسفة الألوهية المعقدة عند أفلاطون، وربط بين عيد العنصرة وبين الخلق وأمور البداية والنهاية، ومملكة المسيح، وتناول في ثنايا ذلك أفكار كل من الكاتبين الألمانيين بومه

وشيلينج، وفكرة سبينوزا عن الله والطبيعة ووحدة الوجود ومشكلة الطبيعة الفاعلة وطبيعة المسيح في طوبيا الملكوت أو مملكة الرب، ويخلص إلى أن الإنساني والمادي يقتحمان السمو الإلهي ويحلان محله. وفي هذا الإطار يعرض بعضا من رؤى الفلاسفة العرب مثل ابن سينا وابن رشد عن التصور الديني.

في الباب السابع والأخير يناقش المؤلف مصادر الشجاعة التي تدفع الإنسان إلى خوض الحياة وهنا يعود للتنوير مرة أخرى ويقرنه بالإلحاد قائلا إنهما لا يتعارضان مع ما هو شيطاني كما ورد في مأساة فاوست لجوته، ويقارن بين لقاء فاوست بطل العمل بالشيطان وبين لقاء موسى بالرب في تشبيه عجيب.

ثم يتحدث عن المصادر الأخلاقية الغائية لخوض الحياة والإقدام عليها ويربط ذلك بالطبقة العاملة داخل المجتمع الرأسمالي، وغربتها فيه، واستغلال الأغنياء لهذه الطبقة، وحتى هؤلاء المستغلون لهم غربة ذاتية من نوع آخر، لكنها ربما أرقى في إطار دائرة العمل المغلقة التي تصيب بالشلل، ضمن حياة منعدمة القيمة يسيطر عليها القحط النفسي والعيش لمجرد العيش، ثم يأتي الموت بعد ذلك كنهاية غير منطقية في زعم بلوخ لهذه الحياة، ويرى أن قليلين فقط هم من يسعون للخروج من ضغوط الحياة المنسدة هذه. ويعود مرة أخرى للحياة الهادئة عند الرواقيين في نظرتهم للطبيعة على أنها "مدينة زيوس المكتملة" مقارنا ذلك مرة ثانية بالنبضة الواقعة عند المسيح بما تضمنته من ظلمة العالم الخارجي ورفض مدينة زيوس والتحول الكلي من معاني الأقدار الطيبة إلى أقدار معادية ومخيفة للإنسان، الإنسان الذي تحول وفق هذه العقيدة إلى صاحب عاهة متحمل لوزر الخطيئة، وبهذا تعتبر عودة المسيح هي الأسطورة الأخيرة أو شفرة إلى المسرة الأبدية الطوباوية المشرقة.

ثم يعالج حدث الموت والاحتضار، ويسوق أمثلة لمشاهير في حالة احتضارهم كقيصر وسقراط، ويؤكد على أن يسوع لم يكن يعرف شيئا عن عقيدة التضحية بالموت (موت

الصليب) التي وصفها بولس، ويصور ما أثر عن وحشته الكارثية على الصليب وقوله الشهير بالآرامية: "إلي، إلي، لاما أسابتاني؟ إلهي إلهي، لماذا تركتني؟"، ويتطرق إلى فصل بعنوان "الجوع" الذي يمثل عند بلوخ حافزا نفسيا أهم من حافز الجنس عند فرويد، ويقصد بالجوع عند بلوخ كما عند ماركس في فهم بلوخ ذاته أنه صدى للجوع نحو "ما ليس بعد" أي السعي الدائم للبشرية نحو اكتشاف المجهول ضمن الطوبيا الماركسية المجسدة وصولا بالإلحاد إلى نقطة النهاية "أوميجا" الطوباوية التي تمثل لحظة الإشباع والامتلاء المنشودة. ويشير هنا إلى قصيدة نيتشه، إمام الإلحاد التي تحمل عنوان: "نحو بحار جديدة" التي يعبر فيها عن قوة الذات البشرية وآمالها بعيدا عن المعاني الإلهية المعروفة، وهذه الفكرة تتلاقى بقوة مع طوبيا الأمل عند بلوخ.

ثم يختتم الكتاب بقرار عن "ماركس والتخلص من الغربة" من خلال تعريته لمن بددوا الكنوز الأرضية على حساب ضحاياهم المرهقين المثقلين بالأحمال، ويخلص في النهاية إلى أن طبقة العمال ليس لها مثل عليا تحققها، وإنما تعمل على تحرير الاتجاهات المتوفرة لهذا الغرض داخل المجتمع، ثم يربط ذلك برسالة يوحنا الأولى: "أيها الأحباء، الآن نحن أولاد الله، ولم يظهر بعد ما سنكون ..."، وحتى في الجمل النهائية للكتاب يبدو نوع من الربط القوي بين الماركسية والمسيحية (الحقيقية كما يصفها). ويحدث هذا الترابط وفق بلوخ حين تتجاوز المسيحية عهد الأيديولوجيات والأوهام والأساطير الكنسية بكل ما تتضمن من رفعة الآخرة، عندئذ يلتقي الاثنان، الماركسية والمسيحية من أجل تحرير "المرهقين والمثقلين بالأحمال" حقا، ليتوحد في النهاية "الإنساني الذي لم يعد مغتربا" بالمدرك حسا الذي لم يوجد بعد في عالمه الممكن. سيتوحدان حتى داخل تجربة المستقبل، "داخل تجربة العالم". وهكذا ينتهي الكتاب بأمل خرافي ليس له معالم، إلا أن يعود الناس الذين يصدقون بلوخ إلى الخرافة مرة أخرى. خرافة من نوع وشكل جديدين، تحاول جمع ما لا يجمع وربط ما لا يربط وحشد الطاقات الإنسانية الرائعة للتهويمات الإبداعية المسلية والمشبعة، لعالم يضج بالجوع الفكري الحقيقي.

نبذة عن حياة بلوخ

ينتمي إرنست بلوخ (١٨٨٥-١٩٧٧)، مؤلف كتاب "الإلحاد في المسيحية"، إلى أسرة يهودية من منطقة بفالتس (بالاتينات) الألمانية، وكان أبوه موظفا بقطاع السكة الحديد، وكانت المقارنة التي عقدها بين مدينة لودفيجسهافن التي ولد بها وهي مدينة عمال تقع على نهر الراين وبين مدينة مانهايم البورجوازية مسألة مؤثرة في حياته. وانصب اهتمامه مبكرا على الأدب والفلسفة، الأمر الذي اتضح في تقدمه لدراسة الفلسفة في جامعة مانهايم لدى البروفيسو تيودور ليبس بمجرد حصوله على الثانوية العامة عام ١٩٠٥. ودرس بلوخ أيضا علوم الفيزياء واللغة الألمانية وآدابها والموسيقى كعلوم جانبية. وبعد ذلك توجه للدراسة في جامعة فورتسبورج على يد الأستاذ أوسفالد كولبه. وحصل على الدكتوراه في عام ١٩٠٨ برسالته عن موضوع: "مناقشة نقدية حول ريكرت ومشكلة نظرية المعرفة المعاصرة". وبدا بلوخ في معظم إنتاجه أنه صاحب منهج قريب من نيتشه في إلحاده لكنه صبغ ذلك بصبغة طوباوية.

غادر بلوخ ألمانيا وانتقل إلى الحياة في المهجر مع بداية الحكم النازي لألمانيا في ١٩٣٣، وعاش في الولايات المتحدة بداية من ١٩٣٨ وحصل على الأستاذية في الفلسفة وحصل أيضا على الجائزة الوطنية لجمهورية ألمانيا الديمقراطية (سابقا) عام ١٩٥٥، وما لبث أن أحيل قسرا إلى التقاعد عام ١٩٥٧، وذلك بعد أن اصطدمت رؤيته عن نظام اشتراكي حر وغير مذهبي برؤية الحزب الشيوعي في ألمانيا الديمقراطية حينذاك وأنصاره من الأساتذة الجامعيين. وفي عام ١٩٦١ انتقل إلى العيش في جمهورية ألمانيا الاتحادية (التي كانت توصف بالغربية في ذلك الوقت) وأصبح أستاذا زائرا بجامعة توبنجن، وفي عام ١٩٦٧ حصل على جائزة السلام التي يمنحها اتحاد الناشرين الألمان.

دافع بلوخ كفيلسوف ماركسي عن النهج الستاليني الوحشي زمنا ، لكنه تخلى عن هذا الموقف فيما بعد، بعد أن كان الأوان قد فات وارتكبت مجازر وضغوط هائلة ووقع السحق

الوحشي لانتفاضة المجر عام ١٩٥٦ فتحول إلى ناقد وكاشف لصور القمع التي ارتكبت باسم الماركسية في أسوأ تجلياتها ودفع ثمن ذلك بالطرد من الجامعة والتضييق عليه في المستوى الاجتماعي، إلا أنه لم يسجن كما سجن تلامذة له.

اهتم بلوخ بفلسفة الأمل على أساس من المادية الجدلية وانتهج هنا منهج الجمع بين أرسطو وهيجل والاعتقادات الأخروية في كل من اليهودية والمسيحية، وفي نظره تقوم الطوبيا المجسدة والآمال البشرية كما تعبر عن ذاتها في أحلام اليقظة والخيال وفي منتجات الفن والتقنية والأدب والفلسفة والدين كرد فعل على "ما لم يدرك بعد"، وعلى مصطلح "ليس بعد" هو مصطلح أساسي في فلسفة بلوخ، وعلاقة ذلك بما أسماه "ما لم يكن بعد" وكلاهما أمران خافيان في العالم ويشعر بهما "كظاهر" للإمكانيات الكامنة لحياة إنسانية أفضل. وفكرة ما لم يكن بعد تشير إلى إمكانية تأثير الإنسان في تطوير الطبيعة والمجتمع من خلال الفعل والتخطيط والتشكيل الدائم.

ويرى بلوخ أن اكتمال الإنسان والطبيعة الذي يتم من خلال العلاقة الجدلية هو الهدف الأساسي من إزالة العبودية والإذلال وإزالة كل لون من الاغتراب داخل المجتمع وفيما بين الإنسان والطبيعة. واستغل بلوخ مادة ثرية ثقافيا ودينيا وفكريا لتكوين فلسفته المثيرة والغريبة بكل المقاييس. وحاول الجمع بين الشك والإيمان وتكريس نوع من الطوبيا المنفتحة على مستقبل إنساني أفضل، لكن دعائمها الفعلية لم تكن واقعية يوما، وإنما محلقة في آمال لا تنتهي عن إمكانيات الفعل البشري، ربما لا تتفق والواقع مطلقا.

منهج الترجمة

حرصنا في ترجمة كتاب "الإلحاد في المسيحية" لإرنست بلوخ، على التعامل بتوازن تام بين الأسلوبية والمعنى في النص الأصلي، بحيث لا نفسر ألفاظ الكاتب من عند أنفسنا، وإنما نسعى إلى نقلها كما كتبها صاحبها قدر الطاقة، لأن بلوخ أديب إلى جانب كونه فيلسوفا، وقد تأثر بالمدرسة المعروفة بالتعبيرية التي سادت خاصة في عشرينيات القرن الماضي، والتي تتسم باللغة الفاعلة ذات الدلالات المؤثرة والمحركة للقارئ، ويظهر ذلك بشدة في بدايات الفصول والفقرات المفتاحية عنده، حيث يبدأ بأرضية أدبية آسرة، تجمع صنوفا شتى من الصور والأخيلة، ثم يدلف إلى المعنى المراد من عناوينه المختارة، لكنها مختارة وفقا لهواه، وليس وفقا لهوى الفلسفة، التي كان ينبغي أن يفهم الناس منها عبارات محددة ومفاهيم دالة، لكن ذلك يصعب في حالة بلوخ، فيظل القارئ في صراع بين المعنى المباشر الذي كان ينبغي أن يجده وبين الدلالات القوية التي أوحى بها نفسيا لنا من خلال تعبيراته الأدبية الأخاذة أسلوبا والفارغة معنى غالبا. فأنت هنا مع فلسفة بالإيحاء. وقد حاولنا في ترجمة هذا الكتاب أن نحافظ على هذا الأسلوب الفريد، لأنه لا يمكن أن نقحم فهمنا نحن على هذا الأداء اللغوي الرصين، خاصة وأنه يتكلم في هذا المستوى عن أمور شتى، تتعلق بالدين المسيحي نقدا وتعليقا وتأييدا أحيانا، وربط هذا الأداء بالإلحاد ربطا غير مسبوق، نعم، ربطا صادما، لكن كثيرا منه حقيقة، ساق للتدليل عليها أحداثا من التاريخ ومن النصوص الأصيلة للكتاب المقدس في براعة مذهلة. لن نتكلم هنا عن التكافؤ في الترجمة بقدر التناسب بين الأصل والفرع، أي بين الكتاب في نسخته الألمانية وترجمته إلى العربية، ورغم أن منهجية التناسب المعنوي والتأثير الوجداني أقرب إلى ترجمة الآداب منها إلى ترجمة الفلسفة، حيث يكون للجانب الشعوري في الأدب دوره الذي يتوافق مع منهجية الترجمة بالتناسب التوفيقي وليس بالنقل التكافؤي بين المنقول منه والمنقول إليه. ولكننا طعمنا الترجمة بعدد واف من الحواشي التي نشرح فيها ما قد يلتبس من معان قد يجد القارئ فيها صعوبة، أو لأن الأصل لم يسعفنا

بتبين ما أراد الكاتب حقيقة بقوله، بحيث نستطيع أن نعلن صراحة أن هذا هو المعنى المقصود، وقد بينت الدكتورة عطيات أبو السعود في كتابها الشامل "فلسفة الأمل عند بلوخ"[٢] صعوبة اللغة التي يستخدمها هذا الفيلسوف وإلغازاته التي لا تنتهي، فقل أن يأتي فيلسوف بمثل هذا الأسلوب العجيب، وقل أن تفهم من بلوخ شيئا مباشرا من دون التفاف، فلابد أن نسير معه في تلك السراديب الفلسفية غير المبينة حتى النهاية، في رحلة مثيرة وممتعة في الوقت ذاته. هذه الهوامش كانت ضرورة لبيان المعنى المراد أو سعيا لبيانه إن لم نوفق في بعض الأحيان. ورجعنا في ذلك إلى مئات المراجع لبيان المقصود، كما رجعنا للأصول التي أوردها المؤلف كناقل عنها لأصل ورد ذكره، فجاء سياقا مقطوعا أو معنى مبتورا، أو عبارة مبهمة، أو قصيدة نقلها عن أديب دون مراعاة البدايات المعتادة في قواعد الاقتباس العلمي، وفي أحيان كثيرة كان المؤلف يستخدم تعبيرات باللاتينية دون أن يشرح أيا منها، فكنت أضطر للبحث في مصادر هذا المجال بين مراجع كثيرة حتى أحصل على المعنى المراد، الذي يذكره بلوخ كشيء بدهي، وما هو بذلك، وأرجو أن أكون قد وفقت في نقل هذا النص الذي مثل لي تحديا لغويا، وأدبيا، وفكريا مرهقا، وأرجو للقارئ أن يسعد بتجربته مع قراءة هذا الكتاب كما سعدت بنقله إلى العربية.

القسم الثاني: تفكك القيم في العصر الحديث عند الكاتب الروائي النمساوي هرمان بروخ

والآن نتناول تفكك القيم عند الأديب الألماني هرمان بروخ كما عرضته الثلاثية الروائية "السائرون نياما" والتي أقوم الآن بترجمة نصوصها الرائدة أيضا في منهجها.

[٢] انظر: عطيات أبو السعود: الأمل واليوتوبيا في فلسفة إرنست بلوخ: ملاحظات نقدية ختامية ص.: ٣٩٧ وما بعدها. المملكة المتحدة ، SL4 1DD، يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، يعد الكتاب أفضل ما صدر عن بلوخ باللغة العربية حتى الآن، ولكن يبقى فهم بلوخ للمستقبل وكيفية تحقيق الإنسان لآماله شأنا شائكا لا يختلف كثيرا عن الخرافات التي انتقدها. هذا وامتنعت دار نشر الترجمة التي قمت بها لكتاب بلوخ ، ونشرت في لبنان، عن نشر القسم الأكبر من الحواشي التي قصدت بها تيسير اللغة المنسدة لبلوخ، لأسباب تخصها، وعسى أن تكون هذه المقالة بيانا كافيا يسهم في فهم الترجمة.

يهتم هيرمان بروخ في المقام الأول بالإنسان في مجمله. ومن أجل التقاط هذه الصورة ونقلها، فهو يحاول أيضًا التعرف على مجمل العالم. بطريقة غريبة وفريدة تقريبًا، يجمع بين عناصر الخيال الأدبي وعناصر الفلسفة. باعتباره شاعرًا وفيلسوفًا ومهتما بالسياسة وناشطًا في مجال حقوق الإنسان، فقد أظهر بحق قوة فكرية مركبة ومتعددة الأبعاد. فهو يرصد أحداث عصره من منظور نقدي، ويستفيد من أحداث الماضي بطريقة تحليلية، ويستخلص منها العبر ويعبر عنها بالوسيلة الأدبية أو في الرسائل الفلسفية. إن تعامله مع مواضيع مختلفة يؤكد على الأخلاق والمثالية التي يجب تقديمها في شكل جمالي.

يدعو بروخ إلى نظام جديد للقيم حيث يجب إعادة اكتشاف ما هو ملزم عالميًا والاعتراف به مرة أخرى. ما هو ملزم بشكل عام هو ويظل الناتج الموجز للقيم الصالحة بشكل عام. الزمن سيء ومقفر بقدر ما يرى بروخ أن الشخص الذي يعيش فيه أو روح العصر السائد ينفصل عن الأفكار الأفلاطونية حول القيم السامية والفضائل الملزمة، والتي هي بديهيات لا غنى عنها لحياة الإنسان بالمعنى المقصود. يمنحنا أدب بروخ صورة ذات مصداقية للغاية عن النفس البشرية اليوم، المعزولة في الفراغ والملل والخوف البليد من الموت والتي تفلت أو تحاول الهروب بالجنون أو الانحراف أو الرومانسية أو العنف. كشاعر متفلسف، يرى مهمته في تشكيل القيم المتدهورة في مجتمع في حالة انحلال أخلاقي. كفيلسوف شعري، يتعامل بروخ بشكل مكثف مع مشكلة الأخلاق، دون إهمال الجمالية.

من الناحية الموضوعية، جعل بروخ من نقد الزمن الموضوع الرئيسي لرواياته، وهو ليس موضوعًا جديدًا في الأدب، ولكن الجديد هو أن نقد بروخ الزمني يرتكز على وعي ديني ويتم توضيحه بوسائل أسطورية. هذه النقطة على وجه الخصوص هي حافز مهم لمشروع كتابة هذه الأطروحة حول روايات بروخ؛ إن مسألة الهوية في عالم متشابك بقوة في جميع النواحي، ودور الشعر والدين في الحياة العامة وفي إيقاظ الأخلاق في التصرفات الإنسانية، وانتقاد التدهور المتزايد في القيم، هذه المواضيع هي كما يلي: شائع في بلدي الأم مصر موضوعات

لا تزال محل نقاش ساخن في جميع أنحاء الشرق. ربما لم تعد غالبية الناس في الغرب مهتمة بهذا الأمر، لكن هذه الأسئلة ليست بأي حال من الأحوال ميتة في الثقافة الأوروبية. لا أعتقد أنني أبالغ في افتراض أنه لا يزال هناك الكثير في ألمانيا اليوم ممن – حتى لو كانوا يقفون ضد الاتجاهات القوية نحو حرية القيمة – ما زالوا مهتمين بإنشاء مدونة صالحة بشكل عام للقيم، والتي عدم وجودها على الأقل في الحياة العملية، يمكن تعقب العواقب المدمرة للأعمال الإجرااضيع مختلفة يؤكد على الأخلاق والمثالية التي يجب تقديمها في شكل جمالي للغاية. فهو يبدأ من المعطى.

يدعو بروخ إلى نظام جديد للقيم حيث يجب إعادة اكتشاف ما هو ملزم عالميًا والاعتراف به مرة أخرى. ما هو ملزم بشكل عام هو ويظل الناتج الموجز للقيم الصالحة بشكل عام. الزمن سيء ومقفر بقدر ما يرى بروخ أن الشخص الذي يعيش فيه أو روح العصر السائد ينفصل عن الأفكار الأفلاطونية حول القيم السامية والفضائل الملزمة، والتي هي بديهيات لا غنى عنها لحياة الإنسان بالمعنى المقصود. يمنحنا شعر بروخ صورة ذات مصداقية للغاية عن النفس البشرية اليوم، المعزولة في الفراغ والملل والخوف البليد من الموت والتي تفلت أو تحاول الهروب بالجنون أو الانحراف أو الرومانسية أو العنف. كشاعر متفلسف، يرى مهمته في تشكيل القيم المتدهورة في مجتمع في حالة انحلال أخلاقي. كفيلسوف شعري، يتعامل بروخ بشكل مكثف مع مشكلة الأخلاق، دون إهمال الجمالية.

من الناحية الموضوعية، جعل بروخ من نقد الزمن الموضوع الرئيسي لرواياته، وهو ليس موضوعًا جديدًا في الأدب، ولكن الجديد هو أن نقد بروخ الزمني يرتكز على وعي ديني يتم توضيحه بوسائل أسطورية. هذه النقطة على وجه الخصوص هي محط الاهتمام بالأديب ورواياته؛ التي تبرز مسألة الهوية في عالم شديد التشابك من جميع النواحي، ودور الأدب والدين في الحياة العامة وفي إيقاظ الأخلاق في السلوك الإنساني، وانتقاد التدهور المتزايد في القيم. ربما لم تعد غالبية الناس في الغرب مهتمة بهذا الأمر، لكن هذه الأسئلة ليست بأي

حال من الأحوال أمورا ميتة في الثقافة الأوروبية. فما زال كثيرون مهتمين بإنشاء مدونة صالحة بشكل عام للقيم، والتي يؤدي غيابها على الأقل في الحياة العملية، إلى عواقب مدمرة.

يكتسب موضوع القيم الإنسانية القديم والحديث دائمًا أهمية خاصة لأنه ضروري للوجود الإنساني ولتنظيم الحياة الاجتماعية في جوانبها المتنوعة. لن تنتهي الإنسانية أبدًا من هذه القضية. وباعتباره مفكرًا وكاتبًا يتعامل في المقام الأول مع المشكلات الخطيرة التي يواجهها إخوانه من البشر، فقد ساهم بروخ أيضًا في هذا الأمر. لقد حاول بكل الوسائل المتاحة له أن ينقل عقيدته الأخلاقية، والتي كانت إلى حد كبير أيضًا دينية، إلى إخوانه من البشر. ومن خلال القيام بذلك، وجد وسيلة في الأدب لتقديم أفكاره بشكل مناسب، على الرغم من أنه كان في بعض الأحيان متشككًا فيما إذا كان الادب يمتلك الوسائل اللازمة لتحقيق نواياه.

ما يهم بروخ أكثر هو مسألة الهوية. في تفكيره وكذلك في أعماله، يبدو أن وضع الفرد له أهمية خاصة. تُظهر أعمال هيرمان بروخ التناقض بين الحرية المطلقة والضرورة الملزمة. وفي محاولاته الفلسفية والشعرية لتسليط الضوء على انحلال القيم في المجتمع الحديث والتحذير من خطر الانحدار الوشيك للأخلاق، تناول بشكل نقدي مشاكل عصره ومعها مشاكل الإنسانية بشكل عام، وليس فقط المشاكل الأدبية، ولكن أيضا السياسية والفلسفية. "إن أعمال بروخ الفلسفية النقدية والشعرية متوازنة منذ البداية". (انظر كتاب معجم كتاب الأدب في القرن العشرين، نشره مانفريد براونإك: هامبورج: روفولت ١٩٩١ ص. ١١٢)

يبدو أن مفهوم بروخ للأدب يتجاوز بكثير الإمكانيات والمهارات الأساسية للروائي. ووفقا له، فإن دور الأدب يجب أن يكون إعطاء الناس المعرفة التي تدفعهم إلى التصرف بشكل أخلاقي، وليس المعرفة السلبية فقط. إن رواياته التي تنتقد الزمن تعطينا أدلة قوية، وقد أكد عليها صراحةً، بشأن الدلالة على مواطن العيوب في عصر انحطاط القيم، كما أنها تعطينا

إشارات حول ما هو ضروري بالنسبة لنا للتصرف بشكل أخلاقي. ويتم هذا بمفهوم تقريب الواقع من الأدب، بحيث يصير واقعا افتراضيا يمكن تصويره في النص الأدبي.

الواقع الافتراضي يعني الأعراض في الحياة اليومية، ولكن ليس الحياة اليومية نفسها، وبصفته مبتكرًا أدبيًا للنثر وفنانا روائيًا، يقدم بروخ العديد من التقنيات الأسلوبية والشكلية والموضوعية المتعلقة بالمحتوى الجديدة في نسيج الرواية الألمانية الحديثة. من أجل تشكيل أفضل لهذا "التوسع في فهم الواقعية" (قارن: هيلموت كوبمان: الرواية الكلاسيكية الحديثة في ألمانيا: توماس مان، ألفريد دوبلين، هرمان بروخ. شتوتجارت، برلين، كولونيا، ماينز: كولهامر ١٩٨٣)، ومن أجل تنفيذ طريقة التمثيل هذه بشكل مقنع، لجأ بروخ إلى الملابس الظاهرية أي الأطر الأسطورية في رواياته. وهذه سمة أساسية للرواية الكلاسيكية الحديثة بشكل عام، أي أن هذا التمويه الأسطوري للسرد ليس من اختراع بروخ، بل إن جميع الكتاب المعاصرين تقريبًا (موسيل وكافكا ومان ودوبلين) اختاروا أساليب مماثلة في التمثيل. ومع ذلك، كان لكل شخص طريقته الخاصة في القيام بذلك؛ وخصوصية بروخ واضحة جدًا هنا أيضًا.

يمكن ملاحظة رؤية بروخ الأخلاقية النقدية في وقت مبكر جدًا. قصيدته الأولى التي يمكن التحقق منها بعنوان كانتوس (١٩١٣) وتتناول بالفعل موضوع ثلاثية الروايات المنشورة لاحقًا في "السائرين نياما". تصف هذه القصيدة صورة مروعة للعصر، والتي شكلت أعماله اللاحقة إلى حد كبير. إحدى مساهمات بروخ المهمة في النظرية الأدبية هي المقالة الشعرية "الفلسفة والواقعية والمثالية في الفن"، والتي أظهر فيها اهتمامه بالنظرية الأدبية في بداية عمله الأدبي وكان قادرًا على إجراء مقارنة دقيقة بين الواقعية والمثالية في الفن، في المقام الأول ضرب نموذج توماس مان، كما جاء في طبعة أعماله الكاملة / المجلد التاسع. وبالنسبة لبروخ فالفن واقعي، ولكن يجب على الفنان أيضًا أن يجد النموذج المثالي. وتتأثر رؤية بروخ للفن بشكل حاسم بفلسفة شوبنهاور: "الفكرة الجمالية الأساسية لشوبنهاور تقول: الرؤية الفنية هي القدرة على الإحساس في الأشياء بـ "فكرتها الأفلاطونية"، أي "الشيء في ذاته". فالإبداع الفني يعني

القدرة على إظهار هذا الانتماء في الشيء" (الأعمال الكاملة /١٨/١/٩-١٩) فالمثالي والأخلاقي قاسم مشترك في كتاباته النظرية وأعماله الأدبية منذ البداية.

يتميز عمل بروخ بالسعي الكبير لتحقيق الكمال. تكمن أهمية بروخ الأدبية في حقيقة أن رواياته – جنبًا إلى جنب مع روايات موزيل ودوبلين وكافكا، وكذلك أيضًا روايات توماس مان – تظهر بوضوح شديد حدود رواية القصص التقليدية وتتجاوزها بشكل منتج. إن هؤلاء المبدعين ينأون بأنفسهم عن التقاليد الأدبية للقرن التاسع عشر ويطورون أشكالًا وتقنيات جديدة قادرة على تقديم إمكانيات أكثر ملاءمة وأكثر شمولاً لتشكيل الحياة الحديثة، التي أصبحت أكثر تعقيدًا. وهؤلاء الخمسة جميعهم من مؤسسي الرواية الحديثة في العالم الناطق بالألمانية. القاسم المشترك بينهم جميعًا هو التجريب الفني بشكل أو بآخر. هذه الميزة ملحوظة بوضوح في ما أنتجه بروخ. إن تجارب بروخ المستمرة هي صدى للبحث المستمر عن الشكل الأفضل الذي يمكن أن يكون ملائمًا لموضوعاته المفضلة مثل انهيار القيم، وإحياء القيم، وفقدان الهوية، واغتراب الفرد في عصر الحرية الجامحة. . ومن ناحية أخرى، فإن التجربة هي رد فعل واضح من بروخ على عدم رضاه عن الأشكال التقليدية للرواية، التي لم تعد قادرة على تقديم الجوانب المعقدة والمتشابكة للحياة الحديثة بشكل كاف، خاصة وأن أفكار بروخ حول الأدب الناجح تشمل نقل المعرفة الأسطورية مع تقديم النقد المعاصر، هو اهتمام مشترك متطور بالأدب الروائي الشامل والمتعدد في مراحل التاريخ، والذي لم تعد الأشكال القديمة مناسبة لتحقيقه. ويعد التجريب سمة مهمة من سمات عمل بروخ، بحيث يمكن وصف تعامله مع الأدب بأنه التجريب المستمر. ورغم أن رواياته تكاد تكون حصرية في نفس المجال من حيث محتواها، إلا أن كل رواية لا تزال شيئا مستقلا من حيث شكلها. ومع ذلك، لم يكن راضيا عن تجاربه. كان رضا بروخ عن رواياته دائمًا مؤقتًا، ثم سرعان ما يغلب عليه اليأس والتشكيك في الأدب مرة أخرى.

أول عمل رئيسي لبروخ، ثلاثية الرواية "السائرون أثناء النوم" (كتبت في ١٩٢٨-١٩٣١، ونشرت في ١٩٣١-١٩٣٢) يعرض الوضع في ألمانيا بين عامي ١٨٨٨ و١٩١٨ من الناحية الأدبية من خلال الكشف عن عملية انحلال الواقع في المجتمع الحديث. بالنسبة للثلاثية الروائية، اختار المصطلحات التاريخية الفلسفية كعناوين فرعية تبرز التعريف الأساسي للعصر المعني (الرومانسية/ الفوضى/ الموضوعية). وباستخدام ثلاثة أبطال، يصف بهم تراجع القيم التقليدية لدى الطبقة الوسطى الألمانية في هذا الوقت. المرحلة الأولى من الانقسام الأخلاقي يمثلها البطل البروسي للجزء الأول، باسينو. هنا يتم إنشاء صورة ألمانيا ما قبل الحرب ويتم الإعلان عن تدمير القيم الإنسانية مجرد إعلان. وفي هذا الجزء يمثل الزي خلاصة القيم الخارجية الأكثر أهمية لدى الناس في ذلك الحيز الزمني. الزي الرسمي هنا هو الواجهة الأخلاقية لروح العصر المتدهور في عصر القيصر فيلهلم الثاني. هنا يبدو الإنسان وكأنه نتاج المظاهر وحصيلة للزي الرسمي وميزان القيم المزيف، حيث يواجه القيم المنتهية ولايتها بالتشكك والاستسلام. محور الجزء الثاني من الثلاثية، إيش، هو شخص برجوازي صغير من نهر الراين، دفعه الزمن الفوضوي والظلم السائد إلى الطائفية. إن العَرَض اللافت للنظر لهذا العصر، وهو فوضى القيم، يبرز بشكل خاص في هذا الجزء. تم تصوير ذروة انهيار القيم في الجزء الثالث من الثلاثية هو هوجينو. و باستخدام مثال المنتفع الألزاسي، تمت مناقشة المرحلة الأخيرة من تفكك النظرة التقليدية للعالم. وهنا نواجه النصر النهائي للاأخلاقية والانتهازية على القيم الإنسانية القديمة.

في ثلاثية السائرين نياما، يتميز موقف الإنسان الجديد بالتفتت والتشرذم العالمي لوجهات نظر الحياة التقليدية المضمونة، وبالبراغماتية المنفصلة عن المفاهيم الأخلاقية، وبالطبيعة المتزايدة غير الملزمة لنظام القيم. وتشكل الأقسام المتعلقة بانحطاط القيم في الواقع رحلة تاريخية فلسفية، ونقطة المقابلة الأدبية الموازية لها هي قصة فتاة جيش الخلاص في برلين. من خلال هذه الإدخالات غير العادية ومن خلال تشابك الهياكل السردية وأشكال الحجج المختلفة،

يحاول بروخ توسيع وظيفة الرواية بحيث يمكن أن تحتوي أيضًا على أقسام شبيهة بالمقالة أو الأشكال التأملية أو النظرية أو التاريخية. في الجزء الثالث هوجينو يتم دمج الغنائي مع النظري التأملي في تصميم تكميلي شبه شعري للفلسفة. في هذا الجزء، تجتمع اللحظات العقلانية وغير العقلانية، والزخارف الصوفية والدينية لتعكس صورة التشظي غير القابل للإصلاح لقيم الحياة. ويهتم Broch في المقام الأول بالتصميم الشامل للعصر. لقد شغلت مشكلة النقد المعاصر بروخ كثيرًا طوال حياته، لدرجة أنه لم يستكشفها فلسفيًا ونظريًا في الدراسات العلمية ولا أدبيا في الروايات فحسب، بل تناولها أيضًا بشكل درامي. تتناول مأساته "المصالحة" (١٩٣٠-١٩٣٢) معضلة الوقت باستخدام مثال أزمة المجتمع الصناعي في الثلاثينيات. وهنا يدعو بروخ أيضًا إلى تطوير نظام اجتماعي يقوم على القيم الإنسانية العامة، ويجب أن يخرج من الأزمة الاجتماعية والاقتصادية.

تعد رواية بروخ السياسية المعاصرة "الأبرياء" – التي تم تجميعها من قصص مكتوبة في أوقات مختلفة – يُنظر إليها في أجزاء من الأدبيات البحثية على أنها استمرار لثلاثية السائرين أثناء النوم. الفكرة التوجيهية هنا هي أيضًا تحليل العصر. يتم عرض التطور الألماني في فترات ١٩١٣ و١٩٢٣ و١٩٣٣ باستخدام المصائر الفردية لأبطال الرواية. تُظهر الرواية بطريقة مثالية كيف كان من الممكن أن تسقط ألمانيا في الاشتراكية القومية. لقد سمحت العقلية السائدة في ذلك الوقت للناس بأن يشعروا بالبراءة لمجرد أنهم لم يرتكبوا جرائم الاشتراكية القومية بأنفسهم. ومع ذلك، ومن خلال الاستعارات الزمنية المختلفة وتقنيات السرد متعددة الطبقات، تظهر الرواية عدم المبالاة التي يشعر بها أبطالها من خلال أحداث ذلك الوقت، وأنها كانت بمثابة ذنب كبير لأنها سمحت للشر بأن يسود. تهدف القصص الإحدى عشرة للأبرياء إلى توضيح المناخ الاجتماعي الأخلاقي قبل وصول الاشتراكية القومية إلى السلطة وظهورها.

يظهر التماثل أيضا بصورة ملحوظة جدًا أيضًا في رواية "السحر" لهرمان بروخ، حيث يتم فيها تنفيذ التشكيل العرضي لأوقات العصر في هذه الرواية المناهضة للنازية أن ولاء الجماهير للديكتاتور والتعصب والبطل المناهض للفاشية يشكل الموضوع الرئيس.

ويتجلى تفرد عمل بروخ في هذا الجانب؛ فبروخ ليس أديبا بالمعنى التقليدي، بل هو مفكر يجد في الأدب أداة مناسبة لنيته في تأسيس النقد الاجتماعي فلسفيا وأخلاقيا. وبدا له ذلك ضروريا بعد أن أرادت الفلسفة، تحت تأثير الوضعية التي سيطرت عليها، التعامل مع الواقع ورفضت كل الأسئلة الأخرى، وخاصة تلك المتعلقة بالقيم، باعتبارها ميتافيزيقية. بخيبة أمل، يتحول بروخ من الفلسفة إلى الأدب، الذي في رأيه يجب أن يتولى الآن مهمة الفلسفة. وعلى عكس العديد من الشعراء الذين يدخلون المجال العام في سن مبكرة ويقتربون من عالم الأدب بتيارات فكرية غير ناضجة وأعمال غير مفهومة وغير متماسكة، فإن بروخ، الناضج عقليا، يظهر بمشروع إبداعي بعيد النظر ومتماسك في مكوناته، وهو مع محاولة تحقيق الانحلال الاجتماعي وإظهار انحطاط الأخلاق وتفكك القيم يتعمق في أسباب الانحلال. هذا ما يميز عمل بروخ بشكل عام: المفكر الناضج في مفاهيمه يأتي راغبا في الكتابة الأدبية.

وهذا لا يتعارض على الإطلاق مع تجريب بروخ المستمر، لأن تجاربه تتعلق بشكل النص الأدبي، لكن تسلسل الأفكار يتبع مفهوما واضحا بالفعل يأتي من تجربة بروخ العظيمة، التي امتلكها قبل فترة طويلة من تحوله إلى الأدب . يمكن إسناد عمل بروخ بأكمله إلى نظام فكري محكم، يعكس بوضوح تأثير التوجه الفلسفي ويضع عمل بروخ في نفس المجال الموضوعي لرؤاه الفلسفية: تحليل العصر، النقد الزمني، أسباب انهيار القيم ونقل المعرفة، وهو المفهوم الذي تناوله بروخ أيضًا فلسفيًا ورأى فيه الخلاص الوحيد والحل الوحيد لأزمة القيم الحديثة. لا يكاد أي كاتب آخر يستطيع أن يجد مثل هذا الأسلوب الشعري المدمج والموحد من حيث الموضوع مثل بروخ، والذي يدين به لتفكيره الفلسفي.

إن المعالجة المزدوجة لنفس الموضوعات في الشكل النظري الفلسفي والأدبي تؤكد العلاقة التكاملية بين أدب بروخ وفلسفته. كلاهما يبقى في خدمة النظرة النقدية للعالم، لكن الأدب ما يزال لديه شكل خاص من التعبير يختلف كثيرًا عن الجدال الفلسفي. في هذه العلاقة التكاملية بين الفلسفة والشعر، يبدو أن الفلسفة دائمًا لها اليد العليا في التوجيه؛ وعلى الأدب أن يخدمها بتحويل الفلسفة إلى شخصيات ومواقف خيالية، إلى شخصيات سردية ولحظات روائية. لا يتبع أدب بروخ أفكارًا شعرية، كما هو الحال عادةً، ولكنه دائمًا ما يتحكم فيه الفكر الذي يسبقه، ومن هنا جاءت التعديلات المتعددة التي ينسجها بروخ مرارًا وتكرارًا في أعماله، وإصداراته العديدة لرواياته.

إن حقيقة تميز أدب بروخ بفلسفته قد تم توضيحها عدة مرات في الأعمال البحثية التي كتبت عنه. ولذلك يشعر بعض الباحثين بأنهم مضطرون، لسبب وجيه، إلى "فهم إنجاز بروخ الأدبي [...] كبديل، كبديل لفلسفة تم تصورها في الأصل. إن التزام بروخ بالأدب له دوافع فلسفية ويهدف في المقام الأول إلى نقل المعرفة. إن تمثيل الأضداد الفلسفية: العقلانية وغير العقلانية، الواقعية وغير الواقعية، الواعية وغير الواعية، وما إلى ذلك، يلعب دورًا مركزيًا في رواياته. في معظم أعمال بروخ، تعد إحداثيات الزمان والمكان شيئًا رمزيًا ويتم تقديمها من خلال الفروق التمثيلية الدقيقة أكثر من تصويرها من خلال الحقائق المعلنة بوضوح. يهتم بتمثيل الواقع الافتراضي الذي يحاول أن يشمل جميع مجالات الحياة في العصر الحديث. بعد دراسة طويلة لأعمال بروخ، توصل باول ميشائيل لوتسيلر إلى النتيجة التالية:

بالكاد وجد أي كاتب آخر في قرننا هذا أن الأسئلة السياسية والاجتماعية والوجودية والفلسفية في عصرنا قد تم التعامل معها بطرق عديدة – أدبيا ومقاليًا وتحليليًا – كما فعل بروخ.

تعتبر رواية هيرمان بروخ "السائرون نياما" بأكملها علامة على التأثير السياسي والثقافي الذي أحدثته الظروف المعاصرة على الأديب والمفكر الفلسفي هرمان بروخ.

كان لدى العديد من المعاصرين أيضًا شوق، مثل شوق بروخ، لتحفيز شعور جديد بالمسؤولية، لكن خطة بروخ التعليمية هي شيء ذو سيادة لأنها ظلت خطة حياة الأديب.

ومع ذلك، لم يكن بروخ هو الوحيد المهتم بموضوع تحليل الحقبة النقدية. ومن المفهوم أن فترة جذرية مثل بروخ تدعو كل أديب مسؤول إلى تقديم مساهمته في إعادة تشكيل الروح الثقافية والاجتماعية. لقد تناول جميع الشعراء البارزين في ذلك الوقت المشكلة بطريقة ما. في أعمال بروخ، وكذلك في أعمال كافكا وموسيل وروث ودودرير وكانيتي تم الإعلان عن نهاية العصر. إن الكوارث السياسية في ذلك الوقت، والتي صدمت الناس من أمنهم التقليدي، تتكثف في قصة رمزية في روايات هؤلاء الكتاب.

ومع ذلك، يظل عمل بروخ أعظم وأهم مساهمة في النقد المعاصر في أدب اللغة الألمانية الحديث. منذ بداية تعامله الجاد مع الأدب، قرر أن يضع المشاكل السياسية في عصره في مركز اهتماماته الأدبية. ومنذ ذلك الوقت، أبدت مسيرته الأدبية إرادة واضحة لممارسة تأثير سياسي مؤكد من خلال رواياته، وهو ما صيغ نظريًا أيضًا مرة أخرى في كتاباته الأدبية، التي لا تتناول الجانب الجمالي للإبداع الأدبي فحسب، بل الجانب الموضوعي أيضًا. ويناقش ارتباط الشاعر بعصره. رأى بروخ خطر النازية ولذلك أراد أن يقوم بدور فعال ضدها وليس مجرد وصفها في الأدب.

بعد اغتيال المستشار النمساوي دولفوس على يد النازيين في يوليو ١٩٣٤، كان من الواضح أن النازيين كانوا يكتسبون السلطة أيضًا في النمسا، وشعر بروخ بشكل متزايد بالالتزام بمواجهة هذا التهديد بشكل مباشر أكثر. لقد اتخذ نهجا ذا شقين: مع الكتابات السياسية ومع الروايات السياسية.

يدين هرمان بروخ بمعرفته الواسعة إلى اهتمامه الكبير بالفلسفة. حيث تعامل لفترة طويلة مع كانط، وشوبنهاور، وآخرين، مستلهمًا الرؤى والتيارات الفلسفية (مثل "الشيء في ذاته" لكانط،

والأفلاطونية ودائرة فيينا، وما إلى ذلك)، وشعر بروخ بالحاجة إلى خلق نشأة كونية جديدة. إن اكتشاف الواقع العالمي الممزق بشدة يمكنه استعادة قيمة المثل الأعلى. قدوته العظمى التي ترتكز قيمه على أفكاره التوجيهية، هو الفيلسوف اليوناني أفلاطون، الذي كان لأطروحاته عن "الخير الإلهي"، والمعرفة، والميتافيزيقية الوجودية، والأخلاقية، والنظرية الفنية، والتربوية تأثير كبير على بروخ.

في محاولاته لخلق الواقع الكلي، اتخذ بروخ مسارات مختلفة في رواياته، واستخدم أساليب مختلفة في العرض، وفي بعض النواحي قلد أيضًا مبتكرين آخرين في فن رواية القصص. يتطلب موضوعه المتمثل في تحليل الوقت بطبيعة الحال أكثر من مجرد مراقبة وثائقية، بل يتطلب وجهات نظر غنية بالمنظور وعمليات تصميم متعددة الأبعاد. وسرعان ما أدرك بروخ ذلك وسعى إلى إيجاد عنصر تصميم في الأسطورة بدا ضروريًا بالنسبة له. أدرك بروخ أن تمثيل صورة كلية لا يمكن تحقيقه إلا في إطار الأسطوري. لكن الأسطوري ليس الوسيلة المناسبة لتحليل ملتزم للزمن. فهو يتأرجح بين هذين القطبين: الأسطوري الذي يمكن أن يعكس الكلية، والسردي الملتزم الذي يمكن من خلاله تحليل الزمن. بالإضافة إلى الأزمة العامة للرواية الحديثة، شهد بروخ أيضًا أزمة أخرى خاصة به. لذلك نجد نوعاً من التعاطف الذي أظهره تجاه مدرسة الفن للفن "l'art pour l'art"، لأن طريقة الكتابة هذه تتجاوز حدود العقلاني، وبالتالي تعكس الجانب الآخر من الكل، أي غير العقلاني.

إن عمله بأكمله تتخلله البصيرة المؤلمة في عدم القدرة على تمثيل عالم يهدد بالانهيار إلى جوانب متعددة الأبعاد ومتبادلة، عالم يبدو أنه لم يعد يترك للأديب أي فرصة لطبع نظام سردي عليه. إذا نظرت عن كثب، فإن أدبه يواجه منذ البداية مفارقة غير قابلة للحل، إذ من المهم تصوير عالم أصبح غير قابل للتمثيل وغير محكي في مرآة القصة والرواية، والتعامل معه أدبيا. لقد كافح هيرمان بروخ لحل هذه المفارقة في عمله حتى وفاته. إننا ندين لكفاحه من أجل التأقلم أدبيا مع عالم أصبح أقل شعرية، بما يعتبر بلا شك التجربة الروائية الأكثر

إثارة للاهتمام في العالم الناطق باللغة الألمانية خلال القرن العشرين كما صورته ثلاثية "السائرون نياما".

يتزامن التصميم الكلي مع جانب آخر يمنح حبكة الرواية توازيًا فوريًا، كما يفعل التزامن في الحياة الواقعية؛ هذه هي تقنية التصميم المتزامن التي وجدها بروخ فيما كتبه جيمس جويس ودوس باسوس واستخدمها في ثلاثية الروائية "السائرون نياما". في هذا العمل، يستخدم بروخ سلاسل الارتباط، والذكريات الماضية، اوالإشارة إلى ما سيأتي، وتقنيات تيار الوعي، وتقنيات التكرار، والكلام النفسي للأبطال، والتصوير التحليلي لأرواح الشخصيات، وبالتالي يسعى إلى جمع كل خطوط وأحداث القصة معًا. الرواية في كل لحظة سردية حتى يتمكن القارئ من رؤية الأمر برمته في من يمكنه تصوير مقطع سردي:

من الواضح أن هناك إشارة معينة إلى جويس في أسلوب الفكرة المهيمنة على وجه الخصوص. إن تأثير التزامن الذي يجب تحقيقه هنا يتوافق مع نية خلق التصوير الكلي للمجتمع، وهو ما يراه بروخ أيضًا كما هو موجود في "يوليسيس". وكانت النتيجة في «يوليسيس» و«السائرون نياما» هي تدمير الشكل الروائي التقليدي.

السردية المتزامنة

بجهد كبير وقوة مثابرة ومعرفة واسعة ومهارات لغوية بارعة، حاول بروخ معالجة المشاكل التاريخية والثقافية للغرب في مطلع القرن وفي النصف الأول من القرن الماضي في أعماله الأدبية، وخاصة في روايات السائرون نياما، ،والأبرياء، والسحر، لتشكيل الأدب في القرن العشرين وتحليله معرفيا. وإلى أي مدى نجح في ذلك؟ وقد أكدت الأبحاث حتى الآن، بحق، أن بروخ لم يحقق هدفه من الرواية المعرفية والتحليلية للزمن، لا سيما أن هناك "تناقضا كبيرا بين قصد الرواية المعاصرة، التأثير على الأحداث المعاصرة من خلال النقد، وبين التناقض المعقد الشكل، مما يمنع حدوث تأثير أوسع منذ البداية.

بدأ بروخ عمله الأدبي بهدف صعب، لكنه غادر الملعب بخيبة أمل كبيرة. وفي نهاية حياته تحول مرة أخرى إلى الفلسفة. الحياة تجربة مستمرة. كما يقول كارل روبرت ماندلكوف بشكل صحيح:

"إنها مجرد واحدة من المفارقات العديدة، مجرد واحدة من التناقضات العديدة في حياة بروخ، أن الطريق الذي قاده من الشك في الفلسفة والعلم إلى الأدب ينتهي بالتشكيك الجذري في الأدب ويقوده في النهاية إلى العلم والفلسفة كعودة إلى موقفه الأصلي." (انظر ماندلكوف: ثلاثية هرمان بروخ "السائرون نياما. التشكيل الفني وانعكاساته في الرواية الألمانية المعاصرة: هايدلبيرج: كارل فينتر ١٩٧٥. الطبعة الثانية ص. ١٣)

هناك طرق واتجاهات تفسيرية مثيرة للجدل للغاية في أبحاث بروخ. وبصرف النظر عن الخيوط الهامشية، لا تزال هناك جبهتان تحددان طيف الأبحاث التي كتبت عن بروخ حتى يومنا هذا؛ واحد قديم، منهجه إيجابي والذي يفسره بروخ بشكل حصري تقريبًا من خلال رؤى بروخ الخاصة، والآخر أحدث ظهورا من الأول، أسلوبه ينفي ذلك بشكل نقدي تمامًا. لم تبدأ المواجهة بين المدرستين الفكريتين إلا في بداية السبعينيات (خاصة بعد نشر دراسات كارل مينجيز النقدية حول فلسفة القيم لهيرمان بروخ في عام ١٩٧٠)، ولا يبدو أنها تراجعت كثيرًا حتى يومنا هذا. صحيح أن العديد من الباحثين وقعوا في الفخ – وهذا أمر ملحوظ ومزعج للغاية – وحاولوا تفسير أعمال بروخ من خلال نظرية بروخ نفسه. العديد من هؤلاء الباحثين اعتمدوا في تفسيراتهم فقط على ما شرحه بروخ نفسه من الناحية النظرية. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك ما قدمه ليو كرويتسر ومانفريد دورتساك، من بين آخرين، حيث تم تجاهل أساليب الدراسات الأدبية والنقد الأدبي بالكامل تقريبًا في مناقشاتهم مع أدب بروخ، والركون فقط إلى ما قاله بروخ في نظريته وتفسير أعماله بناء عليها فقط. ولا تأتي أدلتهم من أي مصادر أخرى سوى من المساهمات النظرية لبروخ نفسه. إن عملية تفسير عمل بروخ في المقام الأول من خلال تعليقاته الذاتية لم تؤثر على أدبه فحسب، بل أثرت أيضًا على فلسفته.

في كتابها فلسفة هيرمان بروخ، استخدمت إرنستين شلانت إجراءً مشابهًا من خلال تجميع ملخص لفلسفة بروخ في ضوء صورته الذاتية بدقة متناهية وتتبع شامل لعمليات تفكير بروخ. وبالكاد غيرت شلانت طريقتها في أعمالها اللاحقة. واتسمت الأعمال التي قامت بها بإهمال السياق التاريخي هي ومن يمثل المعسكر الأول، وهي محاولة غير جادة في الاقتصار على تفسير أعمال بروخ من خلال نظرية بروخ نفسه، ولا يمكن أن توصف بأنها طريقة معقولة لتفسير عمل بروخ بشكل محايد، وعلى الجانب الآخر نجد معسكرًا آخر مثلته مدرسة فرانكفورت النقدية، فأهملت تلك المدرسة الإثباتية التي اقتصرت على رؤى بروخ النظرية في تفسير منتجه الأدبي، وهؤلاء الباحثون لم يتجاهلوا فقط السياق التاريخي، بل شوهوه أيضا، لأنهم لم يضعوا اعتبارا لما قاله بروخ. كما أن آراء بروخ النظرية حول عمله لم تؤخذ بعين الاعتبار من قبل هؤلاء الباحثين. ومن المثير للدهشة أن مدرسة فرانكفورت حاولت بإصرار تبرير تحليلاتها لأعمال بروخ، والتي تتناقض تمامًا مع مشروعه الأساسي كما هو موضح في كتاباته، والذي أثبته عمله وفكره وكتاباته النظرية، وأكده معاصروه. ومن ثم فإنهم ينفون أن بروخ قدم مساهمة فكرية في تطوير الأدب والثقافة الأوروبية. إنهم يرفضون تفسيرات بروخ المبنية على مفهوم نظريته، وأفكاره الفلسفية، ولكن أيضًا المراجعات العديدة المعاصرة والمنشورة لاحقًا باعتبارها كتابات غير صالحة. فقد حشرنا بين طرفين مغاليين أحدهما في الإثبات والآخر في النفي. وأرى أن كليهما خاطئ في نهجه مع أدب بروخ.

وقد ساهمت هذه المدرسة من اليسار الهيجلي الجديد (كارل مينجيس، وفولفجانج فريز، وهاينز أوستيرل) من خلال مساهماتها النقدية بشكل كبير في تعميق وإثراء أبحاث بروخ من خلال فتح أبواب جديدة للتعامل مع أدب بروخ وفلسفته من خلال رؤى متطرفة. حتى ذلك الحين، كانت أبحاث بروخ تستخدم في المقام الأول طريقة واحدة، هي الإثباتية من خلال اتخاذ آراء بروخ النظرية كأساس وحيد لتفسير أعماله. أدى هذا التطرف إلى ظهور تطرف آخر صدر عن نقد مدرسة فرانكفورت المذكورة المغالي في نفي تفسير بروخ عبر رؤى بروخ كما قالت

المدرسة الإثباتية. وبصرف النظر عن هذه النتيجة المفيدة للبحث، فقد تبين أن مقاربة اليسار مثقلة أيديولوجياً للغاية. إنهم لا يأخذون في الاعتبار السياق التاريخي العام الذي يجب أن تُرى فيه عملية بروخ الإبداعية، ولا يضعون معنى الأعمال التي تمت مناقشتها في سياق الجملة الصحيح من أجل إجبار عمل بروخ في نهاية المطاف على الكليشيهات التفسيرية. إنهم يعتمدون على تصريحات بروخ الجزئية، والتي يخرجونها من سياقها بطريقة متحيزة حتى تكون بمثابة دليل على التأكيدات المثبتة بالفعل الذي روجت له المدرسة الإثباتية. ولسوء الحظ، أدى ذلك إلى العديد من التفسيرات الخاطئة والاستنتاجات التي لا يمكن الدفاع عنها.

بالطبع، ليس علينا أن نرى الشاعر ونحكم عليه من وجهة نظره الخاصة فقط؛ بالطبع، يجب أن يقدم البحث العلمي نظرة شاملة قدر الإمكان للحقائق التي تنظر نظرة كلية لآرائه النظرية وآراء غيره، وهو ما لا يمكن تحقيقه من خلال منظور الأديب وحده. لكن هذا لا يعني أننا لا نأخذ رأيه بعين الاعتبار على الإطلاق، خاصة عندما ندرس موقفه الأدبي. عند تفسير النص، حيث يجب علينا أيضًا أن ننظر إلى المنظور التفسيري للأديب، إن وجد، لأن قصد المؤلف يحتوي أيضًا على منهج تفسيري. أخذ ذلك في الاعتبار مهم جدًا للعمل الذي يسعى إلى الموضوعية. لكننا هنا نستمع إلى صوت المؤلف في جوقة الأصوات الأخرى، وليس وحده بأي حال من الأحوال. وبسبب الصراع المرير بين المدرستين الرئيسيتين، أصبح الوضع في أبحاث بروخ أفضل بكثير اليوم على كل حال، رغم أن كلا المدرستين منحاز ومنصب على النظرة الجزئية التي تبناها.

لقد تعلمنا الدرس ألا نقع بهذه السرعة في إغراء تفسير الأديب من خلال نظريته الخاصة لمجرد أنه مُنظِّر أيضًا. ونحن مدينون بهذا – حتى لو لم نتمكن من قبول النتائج – للباحثين اليساريين الذين أدت مساهمتهم إلى إعادة التوجيه المنهجي لأبحاث بروخ. في رأيي أن العامل الحاسم للعمل الجيد هو دراسة فريدريش فولهاردت للموقف التاريخي لهيرمان بروخ، والتي

تناول فيها بشكل مكثف دراسات بروخ المعرفية والتاريخية الفلسفية من فترة ما بين الحربين العالميتين.

ويرى فولهاردت أن كتابات بروخ المبكرة هذه، والتي تعتمد على المناهج الفلسفية للكانطية الجديدة ، حاسمة لتقييم عمل بروخ الأدبي، بحيث لا يحتاج المرء إلى استخلاص عملية تفسير أدبي من مساهمات بروخ النظرية الأدبية، كما فعل كروزر (الراوي كفكرة، إعداد الإعداد، وما إلى ذلك). ومع ذلك، حدد فولهاردت ذلك على أساس تحليل شامل قائم على مقارنة واقعية بين موضوع فلسفة بروخ ومعنى أعماله الأدبية، وبالتالي فإن أساسه ليس تعليقات بروخ الذاتية على الإطلاق. إن أطروحة مونيكا ريتزر الواسعة، على الرغم من فحصها غير الكافي والمتناثر للأدبيات الثانوية، هي أيضًا خطوة أخرى نحو التقييم الجاد لعمل بروخ.

ومع ذلك، يظل الاعتراض هو أن ريتزر، من خلال إعادة بنائها للسياق التاريخي الذي تم فيه إنشاء ثلاثية الرواية "السائرون نياما"، تجعل خصوصيات بروخ المحددة في سياق "مجتمع الحوار الافتراضي" في تلك الحقبة غير قابلة للتمييز بشكل أكبر؛ لم يتم التركيز على ما هو فريد في إنجازاته القيمة النظرية والتاريخية الفلسفية والمعرفية، بحيث تبدو رؤى بروخ ضائعة بين رؤى معاصريه (شبنغلر، سيميل، وينينغر، ريكرت، أدلر). من الناحية المنهجية، يعتبر هذا العمل متطرفًا مثل دراسة شلانت من ناحية أخرى. لا يمكن لعمل ريتزر أن يحقق التوازن العلمي الذي يحافظ على لهجة المؤلف الخاصة (بروخ) في معالجته ولا يسمح لها بالاختفاء في ضجيج السياق التاريخي الجمعي. وفي رأيي أن فولهاردت قد وجد هذا التوازن العلمي بامتياز.

وبالنظر إلى أعماله الروائية، فإن بعض الباحثين يعتبرون بروخ مبتكرا بارعا وأديبا متفلسفا يهتم في المقام الأول بالحفاظ على القيم الإنسانية (لوتسلر، دورزاك، شتريلكا، وغيرهم)، إلا أن آخرين ينسبونه إلى الفاشية في التفكير، (وهؤلاء هم في الأساس الهيجليون الجدد الذين يتبعون

مدرسة فرانكفورت). صنفته مدرسة فكرية ثالثة على أنه أديب مناهض للفاشية، لكنها حددت فيه خصائص يُزعم أنها تربط عمل بروخ الأدبي بالأيديولوجية الفاشية. ولأن كل الأيديولوجيات الفاشية، كما يقال، تقدم "كونا منظما تماما، فإنها تقدم نفسها باعتبارها إمكانية ترتيب عالم منظم". وفي رأيهم، من الممكن إظهار أنماط فكرية مماثلة في أعمال بروخ، حتى لو كان ذلك وفقا لفهمهم الخاص – القائل إنه مناهض للفاشية.

لقد أظهرت ثلاثية "السائرون نياما" على وجه الخصوص هذا النطاق الواسع من التفسير. "اللجوء المتسرع إلى النظرية" الذي انتقده ماندلكوف عند تفسير السائرين نياما ربما يمكن تجنبه من خلال القراءة دون مساعدة الأدب الثانوي التفسيري. ولكن سينشأ خطر آخر نتيجة لذلك:

وبدون أدلة تفسيرية، سيشعر القارئ بعدم الاستقرار إلى حد ما عند قراءة عمل مصور بأسلوب "السائرون نياما"، لأنه من الملاحظ دائمًا أن المؤلف ملتزم ببرنامج أدبي محدد.

مرة أخرى، التوازن مطلوب حتى لا نغرق أنفسنا في أحد "الخطرين". ومع ذلك، فإن الهدف الذي نراه أقرب إلى الصواب هو تناول أعمال بروخ الجديدة بطريقة خالية من الأيديولوجية والوصفية التحليلية قدر الإمكان، والتي من خلالها يمكن أن نأخذ كلا الاتجاهين الرئيسيين لأبحاث بروخ في الاعتبار بطريقة متوازنة لصالح تقييم موضوعي ومتوازن. إنها ليست كلا من كذا ... وكذا الانتقائية، بل هي محاولة مبررة علميا للتعامل مع الأعمال الأدبية بقصد غير متحيز قدر الإمكان وتفسيرها بهذه الطريقة. تؤخذ تصريحات بروخ في الاعتبار هنا فقط بقدر ما تتوافق مع قواعد ومعايير البحث العلمي المعترف بها. ومع ذلك، يجب أن نعترف منذ البداية بأن تعليقات بروخ الذاتية هي عامل أساسي في التفسير والتقييم، لأن بروخ، وموزيل، ودوبلين، من بين آخرين، خلقوا بل وأسسوا شكلاً جديدًا من الأدب لم تكن هناك نماذج له في مجال الأدب من قبل في الرواية حتى ذلك الحين. ولهذا السبب، يجب بالتأكيد أن يؤخذ في

الاعتبار الموقف النظري لهؤلاء المؤلفين. ثم إن الكاتب جزء من عصره، ورأيه أيضاً مما ينبغي أن ننتبه إليه.

في رواية "السائرون نياما"، جسد بروخ العديد من جوانب هذه المشكلة: الأنواع الفاشلة من الناس، والأجواء المهددة، والقيم والعلاقات الإنسانية الهشة، والخوف، والاغتراب، والفوضى، والوحدة، وأخيرًا وليس آخرًا، الأنانية ومنظومات القيم الجزئية. في هذا العمل نجد هذه المشكلة قد تم تناولها بشكل مكثف لدرجة أنه من الصعب أن نجدها إلى هذا الحد في أي كتاب آخر أو حتى في أي عمل آخر لبروخ. وقد تناول العديد من الكتاب المعاصرين أيضًا نفس الموضوعات، لكن لم يعالج أي منهم نفس المشكلة طوال حياته كما فعل بروخ.

ويعتبر هذا العمل نفسه مساهمة في إطار ما يمكن أن نطلق عليه "عملية التفسير الشامل"، التي لا تدعي تفسير جميع مكونات العمل الأدبي بكل تفاصيلها، ولكنها قادرة على تقديم نظرة شاملة قدر الإمكان مع اهتمام خاص باللحظات التكوينية والحاسمة. يرى المؤلف أن هذا الأسلوب هو الذي يمكنه تقديم تفسير غير متحيز قدر الإمكان للعمل الإبداعي لأنه لا يسير بطريقة جزئية. بالإضافة إلى ذلك، هذه الدراسة ليست مخصصة فقط للدراسات الألمانية الألمانية، ولكن أيضًا للدراسات المصرية والعربية. في هذه الحالة، ليس من الممكن دائمًا أن يضمن البحث في الجوانب الجزئية للعمل الروائي بيان المعني في جو غير لغوي في مواجهة التقييمات الجزئية غير المتحيزة أو غير المتعجلة. ولا يمكن إصدار حكم شامل عادل في هذا السياق إلا من خلال الطريقة الشاملة. إن العمل الأدبي، وخاصة العمل متعدد الأبعاد مثل عمل بروخ، لا يمكن النظر إليه بعين سياسية أو فلسفية أو جمالية بحتة، بل يجب أن تؤخذ جميع جوانبه بعين الاعتبار وفقا لذلك. ومع ذلك، في حالتنا يجب ألا ننسى أن هذه دراسة للدراسات الأدبية، أي أن المعايير الأدبية هي السائدة هنا. ما أهدف إليه بهذه الطريقة هو إيصال صورة مناسبة لعمل بروخ، والتي لا يمكن نقلها بطريقة جزئية. وبذلك استخلصت العبرة واستفدت من نتيجة الصراع البحثي المذكور آنفاً بين المعسكرين اللذين استخدما أساليب جزئية

في مقاربتهما لأدب بروخ وفلسفته. هذه الأساليب الضيقة عادة ما تؤدي إلى نتائج غير وافية، في رأيي، لن تكون هذه الأساليب مناسبة نظرا لأسباب اختياري للموضوع، الذي يلعب فيه عنصر النقد المعاصر دورا كبيرا. ونحن في تفسيرنا نتمسك بالنص الأدبي باعتباره نقطة البداية للتفسير. لن يتم النظر في نظرية بروخ أو نظريات الآخرين إلا إذا كانت تخدم الغرض العلمي من العمل، والذي يهدف إلى تجنب الأحادية في البحث.

إن نقد الحضارة الحديثة وانهيار القيم، الذي ظهر إلى النور مع فجر الحداثة في نهاية القرن التاسع عشر، لا يزال موضوعا يناقش على نطاق واسع في الشرق والغرب، ولا يشارك فيه الكتاب والمفكرون فحسب، بل أيضا العلماء والباحثون وعلماء الاجتماع وعلماء الدين. أضف إلى ذلك أن بروخ يعد من كبار ممثلي الرواية الكلاسيكية الحديثة، إلا أنه لم يتمكن بعد من أن يحظى باستقبال علمي في الساحة الثقافية العربية، ناهيك عن جمهور واسع من القراء، مثل معاصريه (كافكا، وتوماس مان، وروبرت موزيل). ، إلخ.). هنا في مصر لا نعرف سوى القليل جدًا عن بروخ، على الرغم من أن كافكا وهيسي وتوماس مان معروفون جدًا وقد تم استقبالهم على نطاق واسع في الدراسات المصرية الألمانية وكثيرًا ما تمت دراستهم عدة مرات. كما يهدف هذا العمل إلى تقديم مقدمة تهدف إلى المساهمة في توسيع الحوار الثقافي الألماني العربي، وخاصة الجرماني. علاوة على ذلك، فإن روايات بروخ، وخاصة رواية "الأبرياء"، تشكل الظروف الزمنية التي ساعدت النازية على الوصول إلى السلطة.

يتمتع كاتب الرواية المعاصرة بميزة على المؤرخ أو الناقد أو الفيلسوف في قدرته على رمز الواقع وتصوره. إن النقل المباشر للواقع يسمح للجانب الأدبي للرواية بالاختفاء. ليس من الضروري إظهار الحدث التاريخي، لكن تأثير الحدث وعناصر المكان والزمان في الرواية بشكل عام وفي الرواية المعاصرة بشكل خاص يجب أن يفهم فقط كدليل وليس كتثبيت تاريخي أو مكاني. كما يلخص هذا القسم بإيجاز الخلفية التاريخية للرواية الواقعية المعاصرة منذ منتصف القرن التاسع عشر.

مساوئ الرواية المعاصرة هي الذاتية وعشوائية الانطباعات، مساوئ الرواية التاريخية هي المسافة المفرطة (الحرجة) والهروب إلى الماضي. لكن الرواية المعاصرة تريد الجمع بين المزايا وتلافي السلبيات.

في الخطوة التالية، سيتم قياس ثلاثية Sleepwalker باعتبارها رواية معاصرة وفقًا لهذه الخصائص. وفي عملية العمل الإضافية، أنتقل إلى النص بطريقة تفسيرية. ويتم التأكيد على أن نقد الزمن يهدف بالدرجة الأولى إلى تخلي الشخصيات عن قيمها الأساسية لصالح قيم خاصة شبيهة بالواجهة، هشة، حنينية، حالمة، عرضية وجزئية. يحدث هذا –كما تظهر الثلاثية– تحت تأثير اللاوعي (كما في الجزء الأول باسينو)، أو الوعي الجزئي (عند البطل إيش)، أو من خلال وجهة نظر هروبية (برتراند في مجمل الرواية)، أو بناءً على نظرة أنانية للحياة (هوجيناو). تم تسجيل الأجزاء الثلاثة بطريقة منطقية ومنحدرة أخلاقيا (إفراغ القديم الجيدة من قيمتها الأساسية العالية، والتذبذب الفوضوي بين المدينة الفاضلة والواقع، وأخيرا الانحدار إلى الجديد الخالي تماما من القيمة، والذي يكره القديم ولا يقدم بديلا حقيقيا عنه) لذلك تتم معالجة الأجزاء الفردية من الثلاثية في ضوء النقد المعاصر، إلى الوضع النهائي الذي يصل إلى ذروته في عمل بروخ في الثلاثية مع الاستطرادات حول انحطاط القيم.

في التعامل مع جزء هوجوينو، يتناول هذا العمل الشكل المعقد والمنظم للرواية ومدى نجاح بروخ في دمج الاستطرادات في نص الرواية. يتم أيضًا فحص القصص الجانبية من حيث علاقتها بالقصة الرئيسية. حيث تمت مناقشة العلاقة بين البنى السردية وأشكال الجدل كما أظهرتها مكونات الجزء الأخير في الرواية "هوجينو" باستخدام المقارنة بين منهج توماس مان ومنهج بروخ. وفيما يتعلق بمعالجة الشكل الروائي لجزء هوجوينو، فقد حددت أيضًا "الثلاثية" كمفهوم وكنوع أدبي بالمعنى التاريخي وحاولت تحديد تطور بروخ الخاص لهذا النوع في ضوء الدراسات الأدبية الحديثة. .

تنتهج المعالجة التفسيرية للخيوط السردية لرواية هوجوينو قسمًا تفصيليًا عن استطرادات الاضمحلال، والذي يستكشف نموذج القيمة الدينية لبروخ بالتفصيل. تم الكشف عن صورة بروخ للعصور الوسطى لأول مرة من خلال الاستطرادات ثم تم تقييمها في ضوء المصادر التاريخية. نظرًا لأن عصر النهضة بالنسبة لبروخ كان بمثابة بداية التفكك الأخلاقي وانشقاق منظومة القيمة الموحدة في العصور الوسطى، فقد تم تحديد وضع الفلسفة منذ عصر النهضة في الخطوط العريضة، مع إيلاء اهتمام خاص للدافع الديني وتطوره. يتم بعد ذلك تقديم نظام القيم الإسلامية في رحلة، حيث يدعي نظام القيم هذا أيضًا الشمولية (في مفردات بروخ: الكلية) والوحدة، كما يأمل بروخ في نموذجه. ويظهر هنا أيضًا إلى أي مدى يرجع نظام القيم الإسلامية كل شيء إلى مثال واحد، وهو الإلهي، الذي يفتقده بروخ في مدونة القيم الحديثة ويعتقد أنه موجود في العصور الوسطى.

نحن نفهم عمل بروخ الروائي باعتباره تمثيلاً لواقع افتراضي، ابتكره الروائي هيرمان بروخ بالطريقة التي فهم بها العالم وصممه. أي أننا لا نفهم تحليل الزمن بمعنى تناول مباشر أشبه بالتقرير الصحفي للواقع، كما أننا لا نعتبر وجهة نظر الكاتب هي وجهة النظر الصحيحة الوحيدة، التي تستبعد وجهات النظر الأخرى حول الزمن بل هي في تفسيرنا"محاولته".

بالنسبة لشخصية برتراند التي تجمع خيوط الثلاثية فما تبقى هو تراجع خبير الجمال، برتراند، الذي يملك في الوقت نفسه الشجاعة على الانتحار. فهو يرمز في مصيره إلى مجمل أحداث الرواية على مستوى أعلى، أي إخفاق القيم القديمة، ومن ناحية أخرى، فإن شخصه، من حيث الشكل، هو رمز لنمو العنصر المظلم والحالم، الذي يتخلل الأحداث بشكل أكثر وضوحًا مع كل جزء من الأجزاء الثلاثة. في الجزء الأول هو نفسه شخص الفعل، وفي الثاني يتحكم في الأحداث الخارجية، لكنه يظهر فقط في صورة الحلم ويختفي بعد ذلك، بينما في الجزء الثالث، على الرغم من أنه لم يعد موجودًا بالفعل، إلا أنه هو نفسه يؤثر في كل مكان. ويحدد موقف كل من كان على اتصال به.

تسعى الرواية إلى التعبير عن هذا التماثل الكوريغرافي (متعلق بتصميم الرقصات) من الشخصيات الثانوية وكذلك في الأحداث والحالات المزاجية الشاملة. ليس أقلها في الأسلوب، الذي يتم تحديده مرة أخرى من خلال العصور الثلاثة.

دائرة الإشكالية في ثلاثية "السائرون نياما"

موطن الإشكالية الأدبية في الرواية مشروط بالاقتناع بأن المنطقة الاحتياطية المستقلة والمصونة للجانب الأدبي موجودة في تلك الطبقة اللاعقلانية الأعمق لدى الأبطال، أي في تلك المنطقة المذعورة حقًا من التجربة، والأحداث المظلمة الشبيهة بالحلم، حيث يتم التحكم في الإنسان فقط من خلال التأثيرات البدائية، والمواقف الطفولية، والذكريات، والرغبات المثيرة، وهي كلها شبيهة بحالة حيوانية. لأنه في هذه المناطق يفشل التعبير العقلاني والعلمي، ولم يعد للكلمة معناها الخاص، بل فقط طابعها الرمزي المتغير، ويجب أن يتم القبض على الموضوع من خلال معرفة التوتر بين الكلمات والسطور. – لكن الشوق إلى الاستيقاظ، والإدراك المعرفي خلال النوم، والذي يسمى، اعتمادًا على المفردات الذاتية، "الخلاص"، "النجاة"، "معنى الحياة"، "النعمة"، فهذا يعمل في الحلم، وهو غير ضائع بدرجة ما. وليس أقل من المشي أثناء النوم نتيجة لذلك. لقد حلت أوقات الروابط الدينية القوية إلى حد كبير محل القطبية الديونيزية–الأبولونية من خلال تشكيل ما يشبه الحلم في قيم معينة؛ وبالرجوع إلى الوراء نشأت من هذه القيم بنية الخطيئة (والصراعات المأساوية للإنسان) – خطيئة الغريزة السافلة التي لا تخترق القيم، وخطيئة العقلاني الشيطاني الذي يرفض القيم أو يرفض الشهوات والرغبات ويجعلها تتشكل بشكل مختلف. وبشكل تقريبي، فهذا هو محط المشكلة في جميع الصراعات الأخلاقية التي تم تناولها في هذا العمل الأدبي. وهذا يؤدي بالضرورة إلى مشكلة جديدة. فأين يذهب الشوق إلى النهضة والخلاص إذا لم يعد قادرا على الوصول إلى ذلك في زمن انحطاط القيم القديمة وانحلالها؟

الجزء الأول يشمل أشكال الرومانسية التي تبدو في غاية التبسيط اليوم. إنها قصة غير ضارة قدر الإمكان ذات إيقاع متدرج ولون طبيعي متواصل تقريبًا.

الجزء الثاني: تم تحريك الأسلوب والإيقاع إلى الأمام بشكل متفجر، ولكن تم سدهما بشكل متكرر بشكل انعكاسي (مما جعل من الممكن أيضًا التأكيد على الثبات البنائي للقسم الأوسط من الثلاثية مقارنة بقسمي الزاوية الأول والثالث). الأشكال، التي تكون في بعض الأحيان ذات حواف حادة للغاية، يتم صقلها أحيانًا إلى درجة عدم الوضوح، وأحيانًا، مثل شخصية برتراند، التي تصبح شبيهة بالحلم تمامًا وتقف على حافة الواقع. لا يزال الشكل الخارجي للسرد الطبيعي قائما، لكن الحركة الداخلية تعكس الفوضى.

الجزء الثالث. يتم تهدئة الفوضى مرة أخرى، وبالتالي العودة إلى الجزء الأول، ولكن في شكل "واقعي" جديد؛ بمعنى معين، ريبورتاج. تم تبسيط سلسلة الارتباط. لكن الانهيار الكامل للقيم القديمة يسمح بتفجير السرد النقي: إطلاق العنان للتقدم المستمر.

البناء الأخلاقي في رواية "السائرين نياما"

القيم الأخلاقية نسبية في مضمون الثلاثية. فالمعنى "الإلهي" هو قيمة مطلقة بقدر ما يكون شكلا، أي شكل تجربة صوفية مثلا. ومن ناحية أخرى، فإن تحقيقاته، أي تحقيقات الإيمان في أشكال الكنائس والطوائف أو القيم الأخرى، نسبية أيضا وقابلة للتغيير في التجربة والزمن. وحيثما يحدث الإدراك مع ادعاء النسب المطلقة، تتحول الأخلاق إلى عقائد دوجمائية جامدة. إن الشخص الذي يخضع للدوجمائية يمكن أن يمتلك كل الصفات الأخلاقية الحميدة، ولكن كلما ابتعد عن التحرر الأخلاقي الحقيقي، أصبحت القيم التي وضع نفسه تحت حكمها أكثر جمودا ودوجمائية.. ولننظر إلى الأمر من منظور آخر: مع تزايد الدوجماتية في الأخلاق، تندمج القيم الأخلاقية في القيم الجمالية – كل شيء ثوري أخلاقي، لكن تعبيره غير جمالي، بل معادٍ للجمال، وكل شيء محافظ هو أخلاقي، ولكنه جمالي. "الحرية" التي تهم دائمًا في

نهاية المطاف في كل ما هو أخلاقي حقًا، لا تأخذ في الاعتبار القيم التقليدية؛ إن مفهوم الاستقلالية، الذي تجد فيه الحرية أساسها المنطقي، لا علاقة له بالمواقف الأخلاقية: هذا الاستقلال مؤكد لم يتم بعد تحقيق القيمة الإلهية النهائية، ولكنها الشكل الوحيد الذي يمكن أن تتحقق به.

في ثلاثية "السائرون نياما": يبدو لكل من باسينو وإيش، وهما طرازان أخلاقيان، وإن كانا يخضعان لعقائد أخلاقية مختلفة، توجد عقائد أخلاقية تموت في هذا الوقت الذي يشهد تراجع القيم، لتصير "رومانسية"، ومن ناحية أخرى، فإن برتراند هو الشخص الجمالي على وجه التحديد. إنه يعلم بانهيار القيم الأخلاقية ويحاول إنقاذ حياته بطريقة جمالية بحتة، مع استقلالية أخلاقية واسعة النطاق (تخرج عن كونها أخلاقية). فقط هوجوينو هو الشخص "الخالي من القيمة" حقًا وبالتالي هو الطفل المناسب لعصره. لذلك فهو وحده يستطيع الاستمرار في الوجود، وهو وحده داخل "استقلالية هذا الزمن" التي يتم فيها التعبير عن النضال الثوري من أجل الحرية. إنه الثوري السلبي، مثلما تشارك جماهير الثوار بشكل سلبي في كل ثورة وما زالت تفعل ذلك. من المؤكد أنه أخلاقي فقط في شكل مستقل، ولكنه بخلاف ذلك غير أخلاقي تمامًا، فهو لم يحقق بأي حال من الأحوال حرية التدين الجديدة، والإيمان الجديد؛ إنه لا يسعى إلى هذا على الإطلاق، ولا يتوق إليه، على الرغم من أن بصيص أمل بإمكانية مستقبلية يشرق فيه هنا وهناك: فكما أن هذا الزمن لم يجد إيمانه بعد، فلن يجده لوقت طويل. ولكنه شكل الحياة، "شكل الحرية"، الذي فيه وحده يمكن أن ينشأ المحتوى الجديد؛ إنه يقف في بداية الطريق (المسار الذي تنبأ به إيش في فوضى القيم – في نهاية الجزء الثاني – بعد اتصاله ببرتراند، رغم أنه لم تتح له الفرصة قط لاتباعه). بمعنى ما، أصبح هوجوينو أيضًا الخصم الفعلي للأم هنتين/ Hentjen – وبالتالي، بصرف النظر عن الدافع النفسي، ضرورة جمعه معها – الأم هنتين Hentjen، التي من جانبها "خالية من القيمة" ومستقلة منذ البداية. تمامًا كما أن "المؤنث" أو "الطبيعة" في حد ذاتها تكون دائمًا خالية من القيمة.

»لا تأسف! "لأننا ما زلنا هنا جميعًا!" ينهي "هوجينو" بهذه الكلمة المليئة بالمصالحة والأمل المعتدل، ومعها ثلاثية بروخ الروائية العظيمة: ليس الانحدار، ولكن نقطة التحول هي المصير الألماني، هو مصير ألمانيا.

يركز هذا المجلد الأخير على "اضمحلال القيم"، وهو العرض التاريخي والمعرفي لتلك العملية التي دامت أربعمائة عام، والتي، تحت قيادة العقلانية، أبطلت النظرة العالمية المسيحية الأفلاطونية لأوروبا في العصور الوسطى، وهي رؤية عظيمة وكبيرة. عملية رهيبة، في نهايتها التجزئة الكاملة للقيم، وإطلاق العنان للعقل مع اختراق متزامن للاعقلانية، وتمزيق العالم ذاتيًا بالدم والبؤس. يُظهر المجلدان الأولان المرحلة الأخيرة من عملية التفكك هذه؛ فهما يوضحان كيف يحاول الناس، الذين يتوقعون ما هو قادم ويخشونه – مرة أخرى العثور على معنى للحياة والدعم ضمن القيم القديمة، للهروب مما يهدد ومما لا مفر منه. في عام ١٨٨٨ في "باسينو" كانت مناقشة خيالات الواجب الوطني والإنجيلي هي المشكلة القائمة لطبقة حراس القيم الواعية بمهمتها المحافظة، ولكن في عام ١٩٠٣ فقد كل من المهمة والشخص الذي يحملها بقية صورتهم التي ما زالوا يمتلكونها، أي كل ما تبقى من القيم القديمة هو مفهوم "الحشمة" الغامضة و– باعتبارها العنصر الأكثر ديمومة – الأخلاق الجنسية القائمة على العذرية والغيرة، وهي خيالات يقع فيها المساعد إيش الذي يحاول إنقاذها. لأن ضميره الفوضوي بدأ يفقد كل الأرض تحت قدميه.

في هوجينو "Huguenau" وصلت عملية انهيار القيمة إلى نهايتها، وبدأت إعادة تقييم العالم، وبدأت "ثورة المعرفة الرهيبة" بالتزامن مع الثورة الخارجية، (بالمعنى القديم) "الخالي من القيمة". والورة غير الأخلاقية تظهر الإنسان على الساحة، ويصبح جلادا منتقما لما كان.

في حين أن «باسينو» لا يزال يحتفظ بأسلوب الرواية العائلية القديمة (وإن كانت تبدو رواية حديثة تمامًا)، ويعيش في توازيات صارمة مع العملية التاريخية لانحلال أشكال الحياة، تم

الإعلان بالفعل عن انحلال وانفجار فن القصص في "Esch"، والذي يحقق اختراقًا مفاجئًا من بعد في "Huguenau". تدور أحداث الرواية، وهي في الواقع عدة روايات على مستويات مختلفة من الوعي والتمثيل، حول «اضمحلال القيم» الذي يرتفع من الغنائي الباحت إلى المعرفي البحت، ويأخذ موضوعات الجزأين السابقين في تناقض دقيق، وكذلك، متشابك، موضوع الإنسان المعزول في انهيار القيم والمتأثر بالخوف من العالم، من أجل إلقاء الضوء أخيرًا، وبإيجاز قوي، على نذير الروح القادمة.

في هذا المزيج من وسائل التصوير المعرفية والشعرية البحتة، لا تشكل "السائرون نياما" نوعًا جديدًا تمامًا من الرواية، بل يمثل أيضًا علامة بارزة ونقطة تحول في تطور فن السرد الألماني، بل أبعد من ذلك بكثير: يمثل تطورا في تصوير التاريخ – والمحتوى الفلسفي والرؤية الشعرية، والدقة العلمية والبصيرة، ترتقي إلى مستوى يجعل من حاله الحقيقي المفسر رائدا في هذا العصر.

البناء الأخلاقي في السائرين نياما

القيم الأخلاقية نسبية في المضمون. فـ"الإلهي" هو قيمة مطلقة بقدر ما يكون شكلا، شكل تجربة صوفية مثلا. ومن ناحية أخرى، فإن تحقيقاته، أي تحقيقات الإيمان في أشكال الكنائس والطوائف أو القيم الأخرى، نسبية وقابلة للتغيير في التجريبي والزمني. وحيثما يحدث الإدراك مع ادعاء النسب المطلقة، يتحول الأخلاقي الشكلي إلى الأخلاقي العقائدي. إن الشخص الذي يخضع للدوغمائية يمكن أن يمتلك كل الصفات الأخلاقية الحميدة، ولكن كلما ابتعد عن التحرر الأخلاقي الحقيقي، أصبحت القيم التي وضعها بنفسه تحت حكمها أكثر ميتة وعقائدية متحجرة. أو لننظر إلى الأمر من منظور آخر: مع تزايد الدوغماتية والأخلاق، تندمج القيم الأخلاقية في القيم الجمالية – كل شيء ثوري أخلاقي، لكن تعبيره غير جمالي، بل معادٍ للجمالية، كل شيء محافظ هو أخلاقي دوغمائي، ولكنه جمالي. "الحرية" التي تهم دائمًا في

نهاية المطاف في كل ما هو أخلاقي حقًا، لا تأخذ في الاعتبار القيم التقليدية؛ إن مفهوم الاستقلالية، الذي تجد فيه الحرية أساسها المنطقي، لا علاقة له بالمواقف الأخلاقية: هذا الاستقلال مؤكد لم يتم بعد تحقيق القيمة الإلهية النهائية من خلاله، ولكنه الشكل الوحيد الذي يمكن أن تتحقق به. (كل شيء تم إعداده إلى حد كبير من قبل كانط، وبالطبع أيضًا من قبل أفلاطون وأوغسطين؛ لكن يمكنني توفير الأدلة لنفسي).

في "السائرون نياما": باسينو وإيش، كلا النوعين الأخلاقيين، وإن كانا يخضعان لعقائد أخلاقية مختلفة، عقائد أخلاقية تموت في هذا الوقت الذي يشهد تراجع القيم، لتصبح "رومانسية"، ومن ناحية أخرى، فإن برتراند هو الشخص الجمالي على وجه التحديد. ; إنه يعلم بانهيار القيم الأخلاقية ويحاول إنقاذ حياته بطريقة جمالية بحتة، مع استقلالية أخلاقية واسعة النطاق (وليست تمثل الأخلاقية بصورتها التامة). فقط هوجوينو هو الشخص "الخالي من القيمة" حقًا وبالتالي الطفل المناسب لعصره. لذلك فهو وحده يستطيع الاستمرار في الوجود، وهو وحده داخل "استقلالية هذا الزمن" التي يتم فيها التعبير عن النضال الثوري من أجل الحرية. إنه الثوري السلبي، مثلما تشارك جماهير الثوار بشكل سلبي في كل ثورة – وما زالت تفعل ذلك. من المؤكد أنه أخلاقي فقط في شكل مستقل، ولكنه بخلاف ذلك غير أخلاقي تمامًا، فهو لم يحقق بأي حال من الأحوال حرية الألوهية الجديدة، والإيمان الجديد؛ إنه لا يسعى إلى هذا على الإطلاق، ولا يتوق إليه، على الرغم من أن بصيص أمل بإمكانية مستقبلية يشرق فيه هنا أوهناك: فكما أن هذا الزمن لم يجد إيمانه بعد، فلن يجده لوقت طويل، ولكن يستشعره هنا وهناك فقط. ولكنه شكل الحياة، "شكل الحرية"، الذي فيه وحده يمكن أن ينشأ المحتوى الجديد؛ إنه يقف في بداية الطريق (المسار الذي تنبأ به إيش في فوضى القيم – في نهاية الجزء الثاني – بعد اتصاله ببرتراند، رغم أنه لم تتح له الفرصة قط لسلوكه). بمعنى ما، أصبح هوجوينو أيضًا الخصم الفعلي للأم هنتين/ Hentjen – وبالتالي، بصرف النظر عن الدافع النفسي، ضرورة اجتماعه معها – الأم هنتين Hentjen، التي من جانبها "خالية من القيمة"

ومستقلة منذ البداية. تمامًا كما أن "المؤنث" أو "الطبيعة" في حد ذاتها تكون دائمًا خالية من القيمة.

" لا تأسف! "لأننا ما زلنا هنا جميعًا!" ينهي "هوغيناو" بهذه الكلمة البولسية المليئة بالمصالحة والأمل المعتدل، ومعها ثلاثية بروخ الروائية العظيمة: ليس الانحدار، ولكن نقطة التحول هي المصير الألماني، هو مصير ألمانيا.

يركز المجلد الأخير على "اضمحلال القيم"، وهو العرض التاريخي والمعرفي لتلك العملية التي دامت أربعمائة عام، والتي، تحت قيادة العقلانية، أبطلت النظرة العالمية المسيحية الأفلاطونية لأوروبا في العصور الوسطى، وهي رؤية عظيمة وكبيرة. إنها عملية رهيبة، في نهايتها التجزئة الكاملة للقيم، وإطلاق العنان للعقل مع اختراق متزامن لكل اللاعقلانية، وتمزيق العالم ذاتيًا بالدم والبؤس. يُظهر المجلدان الأولان المرحلة الأخيرة من عملية التفكك هذه؛ فهما يوضحان كيف يحاول الناس، الذين يتوقعون ما هو قادم ويخشونه، مرة أخرى العثور على معنى للحياة والدعم ضمن القيم القديمة، للهروب مما يهدد ولا مفر منه. في عام ١٨٨٨ في "باسينو" كانت مناقشة خيالات الواجب الوطني والإنجيلي هي المشكلة الحالية لطبقة الحراس الواعية بمهمتها المحافظة، ولكن في عام ١٩٠٣ فقد كل من المهمة والشخص الذي يحملها بقية صورتهم التي ما زالوا يمتلكونها كل ما تبقى من القيم القديمة مثل مفهوم "الحشمة" الغامضة و- باعتبارها العنصر الأكثر ديمومة - الأخلاق الجنسية القائمة على العذرية والغيرة، وهي خيالات يقع فيها المساعد إيش الذي يحاول إنقاذها. لأن ضميره الفوضوي بدأ يفقد كل الأرض تحت قدميه.

في هوجينو "Huguenau" وصلت عملية انهيار القيمة إلى نهايتها، وبدأت إعادة تقييم العالم، وبدأت "ثورة المعرفة الرهيبة" بالتزامن مع الثورة الخارجية، (بالمعنى القديم) "الخالية من القيمة". والثورة غير الأخلاقية تظهر على الساحة، فيصبح الإنسان جلادا منتقما لما كان.

في حين أن «باسينو» لا يزال يحتفظ بأسلوب الرواية العائلية القديمة (وإن كانت تتقنه الرواية الحديثة تمامًا)، في توازيات صارمة مع العملية التاريخية لانحلال أشكال الحياة، تم الإعلان بالفعل عن انحلال وانفجار فن رواية القصص في "Esch"، والذي يحقق اختراقًا مفاجئًا في "Huguenau". تدور أحداث الرواية، وهي في الواقع عدة روايات على مستويات مختلفة من الوعي والتمثيل، حول «اضمحلال القيم» الذي يرتفع من الغنائي الباحث إلى المعرفي البحت، ويأخذ موضوعات الجزأين السابقين في تناقض دقيق، وكذلك، متشابكًا معه، موضوع الإنسان المعزول في انهيار القيم والمتأثر بالخوف من العالم، من أجل إلقاء الضوء أخيرًا، وبإيجاز قوي، على نذير الروح القادمة.

في هذا المزيج من وسائل التصوير المعرفية والشعرية البحتة، لا يشكل أبطال رواية "السائرون نياما" نوعًا جديدًا تمامًا من تجديد الرواية فحسب، بل تمثل أيضًا علامة بارزة ونقطة تحول في تطور فن السرد، ليس الألماني فحسب، بل أبعد من ذلك بكثير: على مدار تاريخ فن السرد. – فبالمحتوى الفلسفي في رؤيتها الأدبية، و دقتها العلمية والبصيرة، ترتقي الرواية إلى مستوى يجعل من حالها المفسر رائدا في هذا العصر.

تعقيب وتقييم:

ثبت بما عرضناه هنا أن كلا من الفكر الفلسفي والإبداع الأدبي في ألمانيا يتوافقان في انحدار مقام الأخلاق في أوروبا المعاصرة سواء كان ذلك في الفكر الديني وعدم قدرة الخرافة الدينية على وضع نسيج معرفي روحي أو عقلي يشبع الروح بما يكفي لإثبات القيم في العقل والروح الأوروبية المعاصرة ، واختصرها بلوخ في عنوانه المزلزل "الإلحاد في المسيحية"، كما أن هذا الانحدار ثبت أدبيا في التخييل الروائي للسقوط الكبير بين أبطال الجزء الأول من ثلاثية بروخ الروائية "السائرون نياما" بصورة تدريجية بدأ في الجزء الأول "باسينو أو الرومانسية" وازداد في

الثاني "إش أو الفوضى" واحتدم في الثالث "هوجينو أو الموضوعية"، وطبعا كلمة الموضوعية تستخدم هنا أقرب إلى معنى الخلو من القيم والتعامل مع العالم كمادة فحسب.

وسمحت الترجمة التي قمت بها لكتاب إرنست بلوخ "الإلحاد في المسيحية" ونشرت في بيروت بدار الجمل منذ عامين والأخرى التي أقوم بها حاليا لثلاثية هرمان بروخ بالفهم المعمق لهذه النصوص أكثر من مجرد التفاعل عبر اللغة الألمانية فقط، وإتاحتها لإمكانيات تفاعل أكبر للمثقفين العرب في هذا المجال الخصب والمثير للنقاش الجاد لعدد أكبر من أبناء أمتنا.

المراجع:

عطيات أبو السعود: الأمل واليوتوبيا في فلسفة إرنست بلوخ: ملاحظات نقدية ختامية ص.: ٣٩٧ وما بعدها. المملكة المتحدة ، SL4 1DD، يورك هاوس، شيبيت ستريت، وندسور. بدون تاريخ نشر.

Arendt, Hannah: ***Hermann Broch und der moderne Roman***. In Durzak, Manfred (Hg.): **Hermann Broch. Perspektiven der Forschung**. A.a.O.

Broch, Hermann: Kommentierte Werkausgabe, hrsg. von Paul Michael Lützeler. Frankfurt/M.: Suhrkamp. 1974 –1981. 1. Aufl. Diese Ausgabe liegt in 17 Bänden vor. Hier handelt es sich um KW/5/308. Vgl. auch dazu Brochs theoretische Schriften über Literatur und Literaturtheorie (KW/9/1 und 9/2).

Bertschinger, Andreas: ***Hermann Brochs "Pasenow" - ein künstlerischer Fontane-Roman? Zu Epochenstruktur von Wilhelmismus und Zwischenkriegszeit***, Zürich, München: Artemis

Brinkmann, Richard: **Romanform und Werttheorie bei Hermann Broch.** In Durzak: ***Perspektiven der Forschung.*** München: Wilhelm Fink. 1972

Durzak, Manfred (Hg.): ***Hermann Broch. Der Dichter und seine Zeit***. Stuttgart (u.a.): Kohlhammer. 19Kreuzer, Leo: ***Erkenntnistheorie und Prophetie. Hermann Brochs Romantrilogie „Die Schlafwandler“***. Tübingen: Niemeyer. 1966

Mandelkow, Karl Robert: ***Hermann Brochs Romantrilogie ‚Die Schlafwandler'. Gestaltung und Reflektion im modernen deutschen Roman.*** Heidelberg: Carl Winter. 1975. 2. Auflage

Menges' Karl: ***Kritische Studien zur Wertphilosophie Hermann Brochs*** 1970

Moltmann, Jürgen: Über Ernst Bloch: Atheismus im Christentum. Und die Bibel ist doch links. In: Der Spiegel. 40/1968. S. 172 ff. Elektronische Version. *www.spiegel.de .*

Ritzer, Monika: ***Hermann Broch und die Kulturkrise des frühen 20. Jahrhunderts***. Stuttgart: Metzler. 1988

Roethke, Gisela: ***Zur Symbolik in Hermann Brochs Werken.*** *Platons Höhlengleichnis als Subtext,* Tübingen: Francke. 1992.

Steinecke, Hartmut: ***"Die Schlafwandler" als Zeitroman***. In: Strelka (Hg.): Broch heute. Bern; München: Francke. 1978. S.25-42

Schlant, Ernestine: ***Die Philosophie Hermann Brochs.*** Bern/ München: Francke. 1971

Steinecke, Hartmut: ***Hermann Broch und der polyhistorische Roman: Studien zur Theorie und Technik eines Romantyps der Moderne.*** Bonn: Bouvier

Strelka, Joseph: ***Broch heute.*** In: Strelka (Hg.): **Broch heute**. Bern: Francke. 1978.

Torberg, Friedrich: ***Broch oder Die Redlichkeit.*** In: Strelka, Joseph (Hg.): **Broch heute**. Bern: Francke. 1978. S. 43-50.

Vollhardt, Friedrich: ***Hermann Brochs geschichtliche Stellung: Studien zum philosophischen Frühwerk und zur Romantrilogie 'Die Schlafwandler' (1914-1932).*** Tübingen: Niemeyer. 1986.